

رواية

# ريالي المثقوب

## الميلودي شغموم




محمد
بن
محمد
بن
محمد
بن
محمد

**إهداء ٢٠١٢**

الاستاذ الدكتور خالد عزب

**جمهورية مصر العربية**

# ريالي المثقوب

# ريالي المثقوب

(رواية)

الميلودي شغموم

الطبعة الأولى / ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م





دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

WWW.elainpublishing.com



الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٥٥ /٢٠١١

I.S.B.N 978 977 - 490 - 097 - 6

# ريالي المثقوب

رواية

الميلودي شغموم

دار العين للنشر





**بطاقة فهرسة**

**فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية**

شغموم، الميلودى.

ريالي المثقوب: رواية/ الميلودي شغموم.

الاسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك:

١- القصص العربية – رواية.

أ- العنوان

٨١٣

**رقم الإيداع/ ٢٠٥٥/ ٢٠١١**

# 1

اسمي محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد...

كل رجال العائلة عندنا محمد، في الغالب الأعم، أو علي، من حين لآخر... بالرغم من أن الغالب، لدى العائلات الأخرى، هو علي والحسن والحسين...

وكل نسائنا فاطمة أو عائشة وأحيانا خديجة، بالرغم من أنها لا تنطق دائما كما تكتب، فأمي اسمها فاطمة، ولكنها تنطق فاضمة، أو فاضم، وأمها عائشة، وتنطق عيشة.

وكانت لنا وسائل معينة للتمييز بيننا، فقد ننادي أحدهم بمحمد الصغير وآخر بأحمد الكبير، مثلا... أبي إذن محمد، محمد الكبير، بالنسبة إليّ.

وأنا، كما قلت، محمد بدوري، محمد الأصغر، بالنسبة لأبي، لكن والدي محمد الصغير كذلك، بالنسبة إلى جدي!

غير أن هذه الأسماء، على مستوى التداول اليومي، لا تهم كثيرا لأنه يكون، عادة، ولكل واحد منا، كنية، أو لقب، ينادى عليه به، سواء في البيت أو في الشارع، فأنا موح، أو مو، سيمو، أو الشلح، ولكني عرفت كذلك الركجوني والسوسي، وبونوارة، أو بو نخلة، بسبب وجود "نخلة" في مفرقي...

وأحيانا يطلق عليك بعضهم اسما، في المدرسة أو في الشارع أو في العمل، لا تعرف كيف خطر له على البال فتضحك وتقول:

– نعم؟

ولي كذلك اسم لا أحبه، الوحيد الذي لا أحب، لا أحتمله:

– الزهري!

كل تلك الأسماء تذكرني بالشقاء، أو السرور، اقترنت بهما معا، إلا هذا الأخير فإنه لا يذكرني سوى بالموت، بعذاب الموت!

ولدت بقرية تسمى تاركجونت، ناحية تارودانت، من بلاد سوس، جنوب المغرب، فأدخلت إلى الكتاب مبكرا، في حوالي الثالثة من عمري، وأصبحت أسرع من يحفظ القرآن بين أقراني.

كانت أمي أجمل امرأة في تلك القرية إلى درجة أن والدي لم يستطع أن يتزوجها إلا بعد فوزه في مباراة شعرية نظمت بين المعجبين بها فكان

كلامه أحسن كلام قيل فيها لأنه لم يقتصر على ذكر جمال جسدها، بشكل ساحر، وإنما حبب إلى الناس خلقها، بشكل عفيف، يفضح تعلقه الكامل بها.

وضعتني وهي في السادسة عشر ثم وضعت أختي، بعدي بعامين، وتوقف رحمها عن تحمل الحمل، قيل:

- " تسلل حنش إلى رحمها وسكن فيه"!

لا أذكر أمي إلا والدموع في عينيها. كانت كثيرة البكاء والحزن. توفي جدي الأكبر في " حركة" فحزنت شهورا وهي تبكي. ومات جدي، أبو والدي، في "حركة أخرى"، فحزنت سنة كاملة وهي تبكي. ثم مات والدي في "حركة" أخرى فحزنت، وبكت، إلى أن توفيت بعده بشهور:

- في ظرف إحدى عشرة سنة توفي كل ذكورها، بما فيهم والدها، يقولون، فاستوطن الهم صدرها ثم تسلل الحنش إلى رحمها قبل أن يصعدا معا إلى رأسها ويقتلاها!

تركتنا لجدتي فاضم العجوز وهي توصيها، تتوسل إليها:

- فراخي، هالعار، عار سيدي أحمد أو موسى!

لا أذكر من طفولتي هذه، في بيتنا بتلك القرية، سوى اصفرار وجه أمي الدائم، ونحافة جسدها المفرطة، وذلك الحنش، الذي كان يلتهمها من داخلها... قبل أن أتذكر أناملها الجميلة وهي تغدق علي بتلك الأنامل البديعة ألوان العناية والمحبة...

ثم تذهب ذاكرتي إلى حقل أشجار الزيتون الكثيرة العدد والثمر، وحقل الجوز، واللوز، حين يزهر أوحين يثمر، وفاكهة الصبار التي كانت تحيط بالمعصرة، والطيور الصغيرة التي كنت أتقن صيدها، بعد الخروج من الكتاب، قرب مجرى الساقية الطويلة، المخرخرة بعنف، التي تجري صافية، شفافة، بين حقليّ الزيتون واللوز والجوز، وتحيط بها أشجار التين من الجهتين...

وكان يظهر من حين لآخر، أرنب، فأعرف أني سأجعل منه وليمة نادرة، وكم كنت مسرورا عندما يحين موسم السمان، والزرزور، والحمام... الربيع والصيف عيدان عظيمان لصبي تعلم، قبل إتقان المشي، كيف يحتال على الطبيعة ويندمج فيها، مع احترامه التام لها: جزء أساسي من التنشيئة في ذلك الوقت الجميل، الكريم!

بقيت في هذه القرية تسع سنوات، آخر سنة منها في الحبس، ثم غادرتها سنة 1929...

ومن المصادفات الغريبة أن أحد أجدادي قد رحل إلى الأندلس، وهو في مثل هذه السن، عام 1090 ميلادية، محاربا، ليستقر هناك تاجرا، فيما بعد.

هذا هو الجد المعروف عندنا بالقرطبي. وذلك لنميزه، على ما يظهر، عن جدي الآخر، الشهير بالمالقي، الذي هرب من الأندلس، حيث كان يمارس التجارة بدوره، حتى عام 1490، عائدا إلى تاركجونت التي لم يسبق له أن رآها من قبل: كما كان بيننا مغامرون أو مهاجرون، رجال،

لسبب أو آخر، يشبهون الطيور، كان أفراد آخرون من العائلة يبقون في تاركجونت، مثل الأشجار، أو الصخور، وقد لا يغادرونها، ولو مرة واحدة في حياتهم، ليحافظوا على الأهل والأرض، لديهم حس عظيم بالاستمرار، للمقاومة في عين المكان!

ومع أننا جميعا، نساء ورجالا، صغارا وكبارا، كنا نتشاءم، بشكل رهيب، من رقم 9، فإن الواحد منا إذا بلغ التاسعة من عمره، دون أن يصاب بأذى قاتل، يقال عنه إنه من أهل التسعين، أي من المعمرين!

لقد اغتنى جدي الأكبر، الذي لا يذكر اسمه إلا مقرونا بالإجلال كأنه واحد من أكبر أولياء الله، اغتنى من التجارة مع قبائل الجنوب، خاصة الصحراء، وتابع جدي المباشر، والد والدي، تنمية تلك التجارة لكن والدي أضاف إليها بعدا آخر: التجارة مع جهات الشمال التي كانت قد بدأت تزدهر أكثر آنذاك: كانت حدود العالم عندنا تمتد من تاركجونت، "مركز الدنيا"، إلى بلاد السودان وأصبحت، بفضل والدي، تمتد حتى بلاد الفرنساويين والسبانيول ومعها تضيع تاركجونت كمركز للدنيا، تصبح كمفترق طرق، محطة استراحة!

كان جدي، أبو الوالد، يقول:

– التجارة، كالعلم، توسع العالم ولكنها تقربه!

وهكذا أخذنا نسمع عن مدن أخرى، غير مدن الجنوب، مثل الدار البيضاء، وعن قبائل أخرى، غير قبائل الجنوب، مثل عبدة ودكالة والشاوية،

وأصبحت تحكى لنا عنها العجائب والغرائب، خاصة عن الدار البيضاء، أو كازابلانكا، أو كازا، اختصارا: بعد أن كان "الشمال" محصورا عندنا في مراكش وفاس، دخلت فيه مدن وقبائل أخرى عامرة بدورها، غنية، فيها العجب العجاب من الثروات والأجناس وأنماط الحياة والأسرار، عا لم جديد يفتن.

– هذه الدنيا الجديدة، يضيف جدي، تسحر وتغني، وكما تسحر وتغني تقتل وتفقر!

– ولكن "النصارى"، الفرنساويين، يصولون فيها ويجولون، يعلق فقيه الكتاب!

يبتسم جدي، وهو ينظر إلى والدي، ولا يجيب: ماذا كان يخفي عن معلم الكتاب، هل يمكن أن يكون هذا المعلم إحدى آذان المستعمر، معلم القرآن الكريم؟

لماذا بقيت في ذاكرتي هذه المسامرة، دون غيرها، كاملة كأنها بنت اليوم؟

ربما لها، ولكل هذه الحكايات، والمحادثات، أمثالها، أو لها بكل تأكيد، دور فيما سيقع لي فيما بعد: الغربة والذل بعد العز!

وهذه كل الحكاية، حكاية هذا الصبي!

# 2

يخرج لي الصبي من الكتاب، الذي كنت أقرأ، ويقول لي غاضبا:

– "وهذه كل الحكاية، حكاية هذا الصبي!"، ياسلام، كيف، حكي هذا أو مسخرة، تسخر مني، أيها العاقل، المتعقل، الراشد؟ لن أسامحك إذا لم تحكِ قصتي كاملة قبل أن تموت أو أموت أنا!

أجبت وأنا متأكد آنذاك مما أقول:

– طبعا، انتهت الحكاية، ماذا بقي منها، أي ماذا سيحدث بعد هذا؟ هذا الولد، وهو يكبر، سيتعذب، ويشقى، مثل بقية الرجال، سيفرح وسيسعد: يحب ويكره، مثل سائر الناس، يتزوج ويلد، يعاني من الخيبة تجاه الأقارب والأباعد، يتشاءم ويتفاءل ثم... يموت كما يموت كل البشر!

احتج بكل جسده:

- لا، لا، وألف لا، إنك ستحكي، في هذه الحالة نظرية، أو ستقوم بتصريف الحكاية عبر نظرية، كأن الحكاية عمياء، لا تستقيم وحدها، أريد منك حكايتي وليس حكاية في نظرية أو نظرية من حكاية، أريد حكاية محمد بن محمد!

اعترضت:

- ألا ترى معي أن هذا الاسم، محمد بن محمد، يشبه كل محمد بن محمد، وحتى كل محمد بن أحمد وأحمد بن محمد؟

تشبث بطلبه:

- رجاء، احكِ قصتي، لا قصة غيري أو قصة في نظرية!

قلت محرجا:

- يا ولدي، أنت تعرف كم من القصص في رأسي، قصص تلح علي ولا أجد لها الوقت، وإن وجدت الوقت لا أجد الطاقة، أنت تعرف الجهد الكبير الذي تتطلبه الكتابة، الحكاية بصفة خاصة، ثم إني لم أعد في مقتبل العمر، تعبت، قل جهدي، فلا تحرجني أكثر!

قال مستلطفا:

- أساعدك، أستطيع أن أساعدك، أعرف كيف أساعدك!

غضبت:

- تساعدني، تكتب معي إذن؟ إنك تهينني!

ابتسم لي:

- لا، عفوا، لا أقصد، أملي عليك الحكاية وأنت تكتبها!

ضحكت:

- كل الناس تعتقد أن لديها قصة مهمة وما عليها سوى أن ترويها لكاتب لتصبح عملا أدبيا، عملا مهما، كأن مهمة الكاتب أن يروي حكايات الناس الذين يعتقدون أنهم يحملون معهم أجمل القصص وأقواها، يجهلون أن الحكاية كما تتغير في الكلام تتغير، وربما أكثر، في الكتابة، فلا يبقى من قصتهم الأصلية شيء يذكر، جدير بالذكر!

مازال يبتسم:

- ولكن هذه القصة، قصتي، مهمة بالفعل، لم تكتب بعد، ولو كتبت مثيلاتها من قبل!

لم أتوقف عن الضحك ولكني تجاهلت "لم تكتب بعد":

- مهمة، من أية ناحية؟

قال:

- اسمع بدايتها واحكم بنفسك، اسمع...

قاطعته:

- تعتقد إذن، يا جاهل، أن أهمية القصة تظهر في بدايتها؟

تابع:

– لا أدري ولكن تقول مثلا، مثلا فقط: "لم أحكِ بعد قصة الولد الطيب، الولد الذي نسيت في الطريق، منذ أول الطريق، ولد طيب، طيب جدا، رغم خبثه، طيب إلى حد السذاجة أو الغفلة، رغم دهائه ومكره، ثم تذكر اسمه كاملا وسنه ومسقط رأسه وطموحه وخيبات أمله... إلخ، ثم تتصالح معي وتنتهي قصتك، قصتي، فهمت؟

ماذا أقول له؟

– ذكرنا هذا كله، يا ولد، وأنهينا الحكاية، منذ البداية!

ألح:

– ولكنك لم تذكرني بعد، كما أنا، كما أنت!

قلت متعبا:

– طيب، يا سيدي، أمرك، لنجرب، فأنت ما زلت تحكم وتتحكم!

أضاف:

– لا تترك حكايتنا مفتوحة هكذا، أكملها أو على الأقل اجمع بعض أطرافها ودعنا نرى!

# 3

فكرت، وفكرت، وفكرت:

صحيح أني لم أحكِ بعد قصة الولد الطيب، حكيت عن تلك القرية، لم أحك بعد عن الولد الذي نسيت في الطريق، منذ أول الطريق، أو مفترقه، وأنا أجري خلف شيء، أو أهرب من شيء، ولد طيب، طيب جدا، رغم خبثه، طيب إلى حد السذاجة أو الغفلة، رغم دهائه ومكره، الولد الذي كنت أهرب منه، أهرِّبه، أو أجري وراءه بالهروب منه، ولدي، طفلي، عمري، حبيبي وعدوي!

لم تكن جدتي فاضم، نظرا لمرضها وتقدمها في السن، قادرة على العناية بنا فكفلنا عمي وتكفلت زوجته باستكمال تربيتنا.

– زوجة عمي؟ تسألني أختي، مستنكرة وخائفة!

وقلت:

- تكفلت زوجته باستكمال تربيتنا؟

أردت القول:

- وتكفلت زوجته باستكمال إفساد تربيتنا!

تقول أختي خائفة دائما:

- مصاصة دم!

أضيف:

- وذمة!

ثم أتابع، مواسيا وفزعا:

- يا لطيف، ما أبشعها وأقساها!

ليست لها ذرة واحدة من حسن أمي ولا من طيبتها. كانت لذتها الكبرى أن تتفنن في تعذيبنا وخلق الأسباب والمناسبات الملفقة لتجعل عمي يكرهنا ويضربنا بلا رحمة. تسمينا "الشيطان والشيطانة":

- تعرف ما عملت الشيطانة والشيطان، تسأل عمي محرضة؟

- أعرف، يرد الساذج، هات الحبل!

كان هناك دائما حبل يرقد، كالحنش، في الماء والملح. نجلد به حتى السلخ بينما هي وبناتها ينظرن إلينا وهن يضحكن إلى أن يتعب عمي من

جلدنا فتهرع إليه تسنده لكي لا يتهاوى:

– اللـه يعطيهم الموت، ما يرتاحوا حتى يقتلونا!

وأحيانا كثيرة كانت تربطنا إلى جذع شجرة يابسة، تحت الشمس الحارة، أو المطر الوابل، إلى أن يعود إلى البيت فيجدنا على تلك الحال فتقول له:

– الولد والبنت مجنونان، مسكونان، اصرعهما ليخرج منهما الجن، الجن واعر، يمكن يقتلونا!

بلغت حينها السادسة و لم تكن أختي قد تجاوزت الرابعة كاملة فلم تستطع تحمل كل ذلك العذاب لأكثر من سنة لتموت بعدها ميتة غريبة لم يفهم سرها أحد:

– كل ما هو جميل قوي وضعيف كذلك وربما ضعفه أكثر من قوته، تردد جدتي وهي تفكر في أمي!

كم شكرت الله على موتها. لقد أراحها وأراحني من رؤيتها وهي تتعذب! فلم لا يريحني الرب كما أراحها؟

– يا ربي، خذ روحي أنا كذلك، واجمعني بأمي، وأختي، وأبي، أرحني، خذني إلى جهنم، لا أريد الجنة، جهنم أرحم من بيت عمي!

لقد رحلوا، ارتاحوا، تخلصوا من هذا العالم الذي نسميه الدنيا، وخاصة من جزئه المعروف باسم العائلة: جهنم في الدنيا ومن العائلة

تستمد الحطب والوقود، يقول لمشير، المجذوب، الذي رحل بدوره أو لم يعد يزور القرية، منذ اليوم الذي هشمت عظامه أفعى!

أما أنا فقد بقيت أتعذب، أذاق كل أنواع العذاب، والذل، والإهانة، عرضة لكل أشكال المؤامرات. أساق إلى الكتاب، أو أعاد منه، مقيد اليدين والرجلين، قيد لا يفك ليلا ونهارا، لأني تقول زوجة عمي، تسكنني جنية كحلة من موريتانيا، جنية ترفض أنْ تعود إلى أهلها، لأنها كافرة، وتهيئني لأن أصبح زوجا لها في المستقبل، بمعنى أنه لا أمل لي في أن تغادر ذاتي هذه الجنية وأن أسترجع رشدي منها:

– جنية، واعرة، كافرة، يمكن جات تابعة بوه الله يرحمه، وها الفقيه، سولوه، تؤكد زوجة عمي!

ويؤكد الفقيه المرتشي بدوره:

– الجنية جات غير تالفة من موريتانيا وعجبها الولد!

نصحني إبراهيم الخماس:

– كل ما يحدث لك بسبب الإرث، إنك تملك ثروة لا تقدر، ولكن الحياة ليس لها ثمن!

سألته:

– وماذا بمقدوري أن أفعل و لم أفعله؟

قال:

– تتخلى لعمك عن نصيبك أو تغادر البلد!

وانتظرت أن يحضر بعض أفراد العائلة لأعلن لعمي:

– عمي، أنت في مكانة أبي، كل ما تبقى من رجالنا، أعلن لك، أمام هذه الجماعة الحاضرة هنا، بأني أتخلى لك عن كل نصيبي من الارث، وأني سأدين لك دائما بالسمع والطاعة لتكون كلمتك هي الأولى ويدك هي الطولى!

دوت زغرودة من داخل المطبخ: زوجة عمي تفرح بنهبي!

ولكن جدتي فاضم، والدة عمي، قامت من وسط الجماعة وصرخت:

– حرام، حرام، حرام، الولد قاصر، لا يجوز له أن يعطي إرثا ولا أن يأخذ منه!

وتفرقت الجماعة على الفور كل واحد غاضب على الآخر ويستنكر: البعض يستنكر تهور جدتي فاضم والبعض الآخر يستنكر طمع عمي!

ترد جدتي فاضم:

– عارٍ يكون هذا الولد، أحمد، ولدي وخرج من رحمي!

يرفع أحدهم صوته مازحا:

– ومن أين يقدر يكون جاء؟

ترفع عكازها مهددة الرجل:

– أنت اسكت، الله يعطيك عقرب في الحلق!

وينصرفون لجدهم أو لهوهم قانعين بتأدية الواجب، أضعف الإيمان!

في بيت عمي مـأتم: خاب سعي زوجة العم من جديد!

أما أنا فلن يتأخر اليومُ الذي حبست فيهْ، مكبلا، في الكتَّاب، لا أغادره، حتى لقضاء حاجاتي الطبيعية، بتواطؤ بين عمي، وزوجته، ومعلم القرآن، حبست شهورا عديدة، بردا وحرارة، إلى أن زارتني جدتي فاضم، من جديد، محمولة على كتف أحد أخوالي!

# 4

يخرج لي الصبي هذه المرة من داخلي، من أعمق أعماقي بينما حكاية الولد، محمد بن محمد، قد بدأت تستقيم فأستغرب لإلحاح الصبي:

– ماذا تريد مني أيها الصبي، لِـمَ لا تتركني وشأني، بعد كل هذا العمر؟

يضحك الصبي:

– تعرف ما أريد، وهو ما تريده أنت نفسك، ولكنك تتجاهله، تنظر إليه بنصف عين!

لا أفهم لأن عجرفة هذا الولد، أو حذلقته، تتعبني إلى حد الغضب، التوتر:

– أقسم لك بكل ما تشاء، أيها الصغير، أني لا أعرف ما تريد مني بالضبط، ولم أفهم من كلامك السابق ما يعينني على إرضائك أو مساعدتك ولو أني لا أريد لا إرضاءك ولا مساعدتك!

يقهقه الولد المغرور:

– طيب، يا سيدي الكبير، سأساعدك: أريدك أن تحررني منك كما أريدك أن تتحرر مني، أريد أن يتخلص كلّ واحد منا من الآخر، عن طريق التسامح والتراضي، الأمر الذي لم ننجح بعد في تحقيقه، فنكف عن تعذيب الطفل والتشويش عليه، عن تسميم جانب كبير من حياته، الأمر الذي لم تنتبه إليه بعد، إنك لا تكف عن الصراع معي، صراع سلبي لا يجلب لنا معا سوى المتاعب، وأنا لا أتوقف عن التمرد عليك، والكيد لك، الشيء الذي لا يريحني ولا يريحك!

وأدركت بالفعل أن شيئا يعيش معي، بداخلي وخارجي، ولكنه عدو أكثر منه صديق:

– أيكون حقا هذا الولد الذي يخرج إليّ من الكتب، أو من ذاتي، ويكلمني؟

سألت:

– هذه أمنية حياتي ولكن كيف نحقق ذلك، أيها المتعالم؟

ضحك من جديد:

– المتعالم؟ هاأنت تستمر في الحط من شأني، ربما لأنك، في قرارة

نفسك، تعتقد أني مجرد طفل، طفولة مررت بها وانتهت، تركتها في بداية الطريق، تخلصت منها بالرشد، لا، يا سيدي، كف عن هذا إذا أردت أن نسعى معا إلى قدر من التفاهم وحل هذا المشكل الذي يسمم حياتي وحياتك!

ماذا أقول له، إنك مجرد غر غرير، مهما تعالمت وتجادلت؟ قلت:

- آسف، يا مولاي، تفضل وقل لنا كيف نحل هذه المعضلة!

نظر عبر النافذة الكبيرة المشرعة قبل أن يتأملني قليلا ثم يقول:

- أول الأمور، أن تعترف بي كطفل، أن تحترمني وترعى حقوقي كاملة!

استغربت لأنه يجعل مني جلادا بطريقة غير مباشرة:

- حقوقك كاملة؟ كأن لا شغل لي إلا هضم حقوق الأطفال!

توقف قليلا كمن يغالب توتره:

- اتركني أكمل، رجاء!

استجبت صاغرا:

- أعرف أن الحوار بين راشد وصبي من أعقد الأمور، ولكنك تبدو أحيانا وكأنك تشتمني!

ابتسم بلطف فجأة:

– أعتذر إن بدا لك النقد شتما ولكنا لن نحقق شيئا من هذا الحوار إن لم يقبل كل واحد منا نقد الآخر له، من هنا يبدأ ربح، أو خسران، كل حوار هام أو تصالح!

علقت كأني أستلطفه:

– اسأل عن ذلك زوجين، أو والد وابنه، أو فقط صديقين، يتحاوران حول مشكلة تخصهما، اسأل لتعذرني!

بدا ألطف:

– أعذرك، ولكنا اشترطنا أن نتعاون معا، أن نحاول على الأقل!

وافقت على مضض:

– صحيح، ولكن ما هي هذه الحقوق التي تطالب بها وكأني أنا من يمنعك من التمتع بها كاملة، هل تنورني؟

لماذا ينظر من جديد إلى النافذة الكبيرة المشرعة حيث تظهر السماء شبه كاملة، شاسعة ومغلقة، محكمة الإغلاق؟

تخلص بصعوبة مما يشبه الشجن:

– حقوقي بسيطة: الحق في اللعب، الحق في التعلم، الحق في الصحة، في الحب... إلخ، حقوق بسيطة جدا!

وجدت كلامه سخيفا، من ناحية، ومؤسفا، من ناحية أخرى، لأنه يبدو خاضعا لمنطق أغلب الناس الذين يحملون مسؤولية أوضاعهم كاملة

إلى غيرهم وكأن لا مسؤولية لهم فيما يعانون منه أو لا قدرة لهم على تحمله أو مواجهته، فقلت:

– وماذا يمنعك من ممارسة حقوقك هذه؟

ظهرت على وجهه بعض القسوة:

– أنت، أنت وحدك ولا أحد غيرك، أيها الراشد الكبير؟

ضحكت، وكأني أتألم في الواقع، إذ تأكد لدي منطق"الخطأ، أو المسؤولية، هو الآخر، دائما الآخر"، قلت:

– تعلق على عجزك، تجعل مني حبل غسيلك القذر!

كان متماسكا، هادئا، وهو يرد:

– تنسى أنك تحملني بداخلك، أني أسكن فيك وليس لي مقر آخر غيرك، أنا طفلك، يا رجل، طفلك الذي تحبسه بداخلك، تخنقه، وليس له من مفتاح آخر، ليستمر حيا، غير حبك، وتسامحك، وتضامنك، وتواطؤك...

أوقفته:

– حرام عليك، لماذا تضاعف من ألمي، تحاول أن تغرقني في الشعور بالذنب، وأنت تعرف حالي، هل أكون حقا قادرا على ارتكاب كل هذه الجرائم، وفي حق طفل؟

أجاب وقد ازداد قسوة:

– أنت لم تعد تحب أحدا، و لم تتعلم شيئا جديدا، منذ زمان طويل، ولا تكف عن قتل نفسك، تسممها بالدخان، والأفكار السوداء، والعواطف السلبية...

أوقفته غاضبا من جديد:

– وما دخلك أنت في كل هذا، شغلك؟

أجاب بلطف فاجأني:

– تلك حقوقي كطفل يعيش فيك ومعك، الطفل الذي يلعب، ويتعلم، ويحب... هذه جرائم في حقي بقدر ما هي جرائم في حقك لأنها جميعا ليس لها سوى اسم واحد هو "اغتيال الحياة"، أنت مجرم، في حق نفسك، وفي حقي بالدرجة الأولى!

وغاب في النافذة، أو في السماء، مرة أخرى. تركني أتميز من الغيظ ثم أصبحت خائفا منه: من منكم لا يعرف مثل هذا الخوف، أو الحرج، من طفل وهو يتناقش معه؟ ولكني لا أدري كيف سألته:

– ما علينا، ماذا تقترح إذن؟

ابتسم لي ابتسامة كبيرة كأنها الشمس يسحبها من الخارج وينشرها على وجهه:

– تتركني أحكي لك وأنت تكتب، عفوا أقصد نكتب معا!

لم أتبين العلاقة:

– والفائدة من ذلك، ما العلاقة؟

رد وكأن شيئا من شمسه قد تسلل إلى وجهي:

– نضيء الألم بالكلام، في حكاية مثلا، لعله يصبح محتملا، يحررنا، يقربنا، لعله يصالحنا!

فكرت طويلا، وأنا أعاني من شجن مفاجئ بدوري، فقلت لنفسي:

– لا يعرف أني سأراقبه، وهو يحكي، أني سأتدخل في كل ما سيروي، لسبب واحد هو أني راشد، الراشد الذي يخضع لألف كابح!

وقلت له:

– قد يكون معك الحق، لنجرب، ماذا سنخسر إن لم نربح؟

فقد تكون هذه أول مناسبة أستمع فيها إلى هذا الصبي، إلى طفلي!

رد فرحا:

– اللـه، ها أنت تريحني، أخيرا تقبل أن تلعب معي لعبة الكلام الذي يؤلم لـ "يسر"، تعال نلعب إذن!

# 5

اسمي دائما: اسمي محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد... أنا الطفل الذي لا أريد أن أنساه الآن!

وها عمي، الذي لم يكن اسمه محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد... الوحيد الذي يحمل اسم أحمد، ها هو يتلذذ بتعذيبي، وأنا صبي، تقاسمه زوجته لذة الجلاد: حتى الجلاد يحتاج إلى شريك، لا يمكنه أن يكون جلادا وحده، فهو وحيد، أصلا، كما سأفهم فيما بعد، وأنا أقلب صفحات هذه المرحلة من عمري!

لم يكن عمي يشبه أبي، ولا أي أحد من أجدادي، سواء من حيث الخلق أو الهمة: غير شكله، وسلوكه، وبدل أن يستمر في مقاومة الأجنبي، كما كانت السنة في العائلة، أصبح في خدمته!

أمه نفسها تستنكر أن يكون قد خرج من صلبها ولا تنادي زوجته بغير الضبعة:

- وافق الضبع الضبعة، تقول، أي اكتمل سلاح الغدر!

جاءتني إذن جدتي فاضم هذه محمولة على ظهر أحد أخوالي، بعد أن فشلت كل محاولات تحريري من حبس الكتاب، بحجة أن الجن لا يدخل الكتاب، جاءتني بخبزة، بعد أن اشترى خالي صمت معلم الكتاب بمعزة!

تأملت وجه جدتي فاضم: كأن قطا عبث فيه طويلا بمخالبه ولكن الخدود التي أحدث تشققت بعد أن التأمت وانتفخت!

جدتي فاضم تثير الغيرة، والشفقة، والحيرة: مئة وتسع سنوات، تكورت، ولكن لسانها لم يفقد شيئا من استقامته ولا من طوله!

امرأة قيل مرات عديدة بأنها ستموت، بأنها ماتت بالفعل: تفقد وعيها، أسابيع أو شهورا، وتصاب بنوع من السبات يشبه الموت ولكنها تعود وتستيقظ كأنها نامت نوما عاديا، نوما طويلا فقط!

وتدخل في حالات شلل مؤقت حتى يظن من لا يعرفها أنها لن تمشي بعده على قدميها ولكنها تسترجع، بعد ذلك، قوة عضلاتها، وصلابة عظامها، حتى تظنها شابة في العشرين!

لذلك سيان عندها أن تقول:

- أنا مريضة!

أو:

– أنا في كامل صحتي!

ولكنها تفضل أن تقول باستمرار:

– لا تطلبوا مني فعل شيء، بعد الآن، ولا العناية بأحد، إني أحتضر سواء كنت واقفة أو متمددة على سرير، المرض قد عشش في كل مكان من جسدي، اتركوني لأموت في سلام!

ألفنا ذلك منها ولكنها حين يتطلب الأمر الحسم، في أمر ما، واسترداد حق، أو صواب، تركب لسانها ولا يقدر أحد على غلبها!

جدتي فاضم، لو عاش والدي لكان سيكون على صورتها وهو يشيخ: الولد من أمه، ولكن... من يقتل الولد قبل الأوان، أتساءل الآن، غير الأم؟

تأملت الخبزة بعد أن أخرجتها جدتي فاضم من صدرها: بنية اللون، كأنها طهيت أكثر من اللازم، مستديرة الشكل، حادة الأطراف، ولكن مركزها منتفخ. إنها ليست للأكل، بكل يقين، ولو حطت أمام جدتي فاضم على مائدة طعام لرمت بها للكلاب، وهي تشتم من طبختها!

وتأملت وجه خالي: نحيف، طويل، أصفر، كوجه كلب جائع، كلب خائف، وعيناه غائرتان في تلك الصفرة، في الوجه الذي دخل حادا في العنق، وجه لا علاقة له، على كل حال، بوجه أمي الصبوح، رغم الحزن الطويل، المتكرر، الوجه المترقرق، كالماء الصافي، الحي، كالأرض الخضراء!

لقد استغربت، وأنا أمر بمراحل تلك المحنة، مع أختي، ثم وحدي، لماذا لم يفعل أخوالي، وهم ميسورون وكثر، أي شيء من أجل إنقاذي أنا وأختي، لـِمَ، ألست محسوبا عليهم؟ ألست أنا ابن أختهم التي ماتت حزنا وهم يتفرجون، لاهون، غارقون في أرضهم وبهائمهم؟

ولم أجد سوى جواب بسيط، وأنا في طريق الهرب: قد يكون خالي، الذي جاء حاملا جدتي فاضم على كتفه، من استعمل تلك الحيلة لإطلاق سراحي من الحبس، وماذا يمكن لأخوالي أن يفعلوا لمقاومة عمي الذي، كما يقال، "قلب الجلابية"، على كل أهله، وأصبح من أقوى المتعاونين مع المستعمر، متجبرا مثله، يختبر قسوته فينا، يتدرب عليها في دمه ولحمه؟

جدتي فاضم هي الوحيدة التي مازالت تقاوم هذا المسخ، هذا العار الذي لحق بأهلنا، تستسلم للموت ثم تستيقظ لتمحو شيئا من الذل ثم تستريح من جديد بالعودة إلى نومها:

– ها مفتاح نجاتك، في هذه الخبزة، تنتظر حتى صلاة العشاء ثم تفك القيد وتهرب من هذا البلد قبل أن يقتلوك، أنا أحتضر ولن أقوى على حمايتك، على إبقائك قيد الحياة على الأقل، اهرب!

كنت أبكي، في صمت، فبدأ خالي في البكاء بدوره، أضافت الجدة:

– تبكي؟ يا لطيف، تذكر من يكون أبوك وجدك، لا تبك كعمك أحمد!

لم يسبق أن رأيت عمي أحمد يبكي، تابعت الجدة:

- هذا الشيء الوحيد الذي مازال يخجل منه: أن يبكي أمام الناس، يختفي عن أعين الناس ويبكي حتى يدمي عينيه!

واستدارت نحو خالي:

- تبارك الله على الخال، تبارك الله على الرجال، اجمع كذبك من عينيك وخل الولد يجمع قواه، اسكت!

مسح خالي الدمع من عينيه وقال:

- هذا جهدنا عليك، أولد أختي!

ضحكت جدتي فاضم:

- سعدي، سعدي بالرجال، اجمع الوقفة، قم!

تمنيت لو أنها قبلتني فقط، احتضنتني قليلا، لكنها قالت لخالي:

- احنِ، زد، احنِ!

وامتطت كتفه وقالت له:

- الدار!

فخرج بها من الكتّاب مهرولا!

بدا لي، وهي تمتطيه، أن خالي يشبه حمارا!

حينها نظرت إلى قيدي المربوط بوثاق شديد إلى حلقة في الحائط: أثناء الليل، بعد انتهاء آخر حصص تدريس القرآن، يفكون يدي ويربطون

الكبل، الذي في رجلي، إلى الحائط، حتى أستطيع أن آكل، وأنظف مربطي، باستعمال يدي؛ في بيت اللـه، يا أهل اللـه!

ولكن غمرني بكاء شديد، حار في عينيّ، ثقيل على خدي: تذكرت أختي التي عذبت ثم اغتيلت وهي في الرابعة من عمرها:

– لو كانت لا تزال حية لهربتها معي، ما كنت لأهرب بدون أختي!

هي بدورها سكن حتش رأسها، فالتهم مخها، وهي لا تزال صغيرة!

# 6

مازال اسمي، كما قلت: محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد... أيها الصبي!

– لماذا أذكرك به في كل مرة؟

مخافة أن يضيع مني هو الآخر، أو يسرق، أو يشوه، وقبل أن يتشتت ويستعير أسماء أخرى، يسكن في القرين، والشبيه، والقريب، وحتى في الخصم والعدو، يا صبي!

وها أنا في مواجهة البحر الذي لم أنزل إليه قط. كنت أراه فقط من فوق الجبل كساقية أكبر من ساقية البلد. وكان حجم سفنه، من ذلك العلو، لا يزيد كثيرا عن حجم السفن الورقية التي كنت أصنعها بيدي وألهو بها في الساقية. بهرت بشساعته وبكبر الحجم الحقيقي لسفنه وبقيت واقفا،

مبهورا، أو مذعورا، أراقب منظره العظيم. نهاني خالي عن الاستسلام لإغواء البحر:

– البحر ليس ساقية، إنه شق عميق يغري ليلتهم، فحذار أن تجرب الدخول إليه أو حتى الاقتراب كثيرا منه!

وذلك بعد أن قال:

– تتوجه نحو الغرب إلى أن تصل إلى شاطئ البحر!

ثم توقف قليلا يفكر وسألني:

– ولكن هل تعرف أين توجد جهة الغرب؟

وبدون أن ينتظر جوابي تابع وقد وقف مادا يده اليمنى نحو الشمال واليسرى نحو الجنوب:

– الغرب هنا، تسير في الاتجاه الذي يشير إليه صدري إلى أن تصل إلى البحر!

وتنفس ثم أضاف:

– هذا هو البحر!

وسكت قليلا ثم قال وقد وقف، من جديد، مادا يده اليمنى نحو الشمال واليسرى نحو الجنوب:

– تتبع فقط البحر، كل ما عليك هو أن تتبع البحر شمالا!

جدتي فاضم لا تتكلم، ما أقصى وأبرز قسمات وجهها، التي عبث بها القط، على ضوء الشمعة التي تتوسطنا لكنها قالت فجأة:

– ثم تصل إلى تزنيت، بإذن الله، وتسأل عن الحاج علي إثنار، جدي رحمه الله، إنه معروف هناك وأي واحد يمكن أن يقودك إلى بيته أو أحد محلات تجارته!

ماذا تعني بقولها "جدي رحمه الله"، طلب المساعدة من ميت؟

أحيانا تدخل في مثل هذا الخرف، تتهيأ به للانخراط في نومها الطويل، فيعرف الجميع أن فاضم في طريقها إلى سبات مثل بعض الحيوانات، أنها ملت الدنيا، أهل الدنيا!

غمز لي خالي وأضاف:

– في أكادير تسأل عن بيت، أو محل تجارة، أحمد أدراز، كل أهل المرسى يعرفونه فلقد اشتغل هناك سنوات طويلة، بائع سمك، بائع صغير قبل أن يفتح الله عليه وتتوسع تجارته، فهمت؟

وأضافت جدتي فاضم لثاني مرة:

– يفهم محمد، يفهم ويعرف، محمد رجل، لا تخف عليه!

وأخرجت، من فتحة صدرها تلك الخبزة وهي تكرر:

– ها مفتاح نجاتك، في هذه الخبزة، تنتظر حتى صلاة العشاء ثم تفك القيد وتهرب من هذا البلد قبل أن يقتلوك، أنا أحتضر ولن أقوى على

حمايتك، على إبقائك قيد الحياة على الأقل، اهرب!

فأخذ خالي الخبزة منها وقال وهو يقدمها إلي:

– في هذه الخبزة مفتاح الكبل وفيها كذلك ريال تتعاون به على الوقت، لا تفتح الخبزة إلا بعد أن تتأكد من النوم التام للفقيه، ولا تصرف شيئا من الريال إلا إذا عجزت، وبشكل تام، عن الكسب، رد بالك، الدنيا هذي، من يستصغرها، أو يأمن لها، تستعبده!

وتكلمت جدتي فاضم لآخر مرة معي:

– كن رجل وما تخف!

دخل المعلم يسبقه تجشوء. خمنت أنه تناول عشاء غنيا، وقد يكون شرب معه خمرا، دون أن يصلي العشاء: رجل تدور حتى لم يعد بالإمكان التمييز بين وجهه، وصدره، وبطنه، من كثرة الأكل والشرب، وقلة الحركة، فأطلقنا عليه، نحن تلامذته، لقب " البعوضة البوّالة "!

كان الكتّاب عبارة عن غرفة متوسطة، واحدة، من طين مطلي بالجير الأبيض الناصع، نصفها مدرسة ونصفها مسكن للمعلم، ولا يفصل بين المكانين سوى ستارة من ثوب أبيض شفاف كان يسمى آنذاك "ثوب حياتي". وكان لها، من الداخل بابان، واحدة تؤدي إلى الخارج وأخرى مدخل لمرحاض. ينام المعلم، الطويل العريض، المدور الشكل، على سرير من القنب محشو بالحلفاء، كما تنام تلك "البعوضة البوّالة" على ظهرها، بالمقلوب.

تمدد على سريره وهو لا يزال يتجشأ بصوت مرتفع ثم تسللت امرأة، كانت تأتي إليه دائما في مثل هذا الوقت، إلى جنبه. أخذت أسمع، ككل ليلة، أصواتا تشبه أصوات الكلاب وهي تتخاصم، وتتنابح، ثم هدأت الكلاب وعلا شخير الرجل والمرأة: لماذا كنت غالبا ما أحلم، وأنا في حبسي ذاك، بالمعلم في صفة بعوضة ضخمة مصابة بداء الكلب!

مرة واحدة فقط حلمت بهذا الفقيه وهو في شكل خنزير: خنزير وردي، سمين جدا، يتحرك بصعوبة، ويقتات من الفضلات وما في المراحيض!

سيبقى هذا المعلم، في ذاكرتي، بل في قلبي، في دمي، في جلدي، في كل مسام قدمي ويدي، نموذج المنافق، المشعوذ: يسكر، ويزني، ويرتشي، ويمارس السحر والشعوذة ولكنه يفتي الناس في دينهم، بل يكفر بعضهم أو يصفه بـ"المؤمن العاصي"!

فتحت الخبزة. لمع المفتاح تحت ضوء القمر الذي يدخل من فتحة صغيرة إلى الكتّاب. أدرته بلطف في فتحة الكبل الذي يأكل قدمي فانفلتت منه القدمان كأنهما تريدان أن تسبقاني إلى الخارج!

حزمت ريالي تحت السرة ليتدلى في حجري وأستطيع التأكد بسهولة أنه لا يزال في مكانه آمنا كلما اضطررت إلى ذلك، وما أكثر المرات التي سأضطر فيها إلى تحسس ريالي: إنه كل ما خرجت به من بلدتي، بعد الثراء، والعز!

# 7

أنام الليل مبكرا وأستيقظ مبكرا، أينما تعبت ووجدت حجرا، أو جدع شجرة، يسند رأسي. أمشي، في اتجاه الشمال، كما وصفه لي خالي، وأنا أتسول، وفي نفس الوقت أغني. يستغرب الناس لهذا الصبي الذي يتسول خبزهم وهو يغني:

– لقد استعدت حريتي، الحمد لله، أكرر لنفسي!

أو أحكي لنفسي قصصا، عندما أكون وحدي، من تلك العجائب والغرائب التي كانت تروى عن مدن الشمال، خاصة البحرية منها، وعلى رأسها الدار البيضاء:

– سأنتقم... لأختي على الأقل، فاضمة البريئة!

كأني لم أكن بريئا بدوري، كأنه لم تغتصب مني طفولتي ولا ثروتي ولا كرامة، وعزة، أبي وأجدادي!

وأتذكر حكاية من حكايات أمي، حكاية الولد الذي يسلب طاغية، كان في خدمة مارد جبار، قبيلته ويتزوج أمه ولكن الولد سيكبر وسينتقم ويسترجع أمه. أراه يصرع الطاغية ويغرس السيف في حنجرته فأكتشف، بعد إزالة قناع السفاح، أن الطاغية هو عمي: قتلت عمي في الحلم، مرات عديدة!

لكني، وأنا هارب، رأيت خياله أكثر من مرة، وفي أماكن عدة، حتى خلت أنه يتبعني، يتعقب خطاي ليغتالني، أو ليعذبني فقط ويطيل تعذيبي. كانت خيالاته ثقيلة، مضببة، حقيقية لأنها تشبهه كما لو كان هو بالفعل. تذكرت أحد أسمائه: الضُبة!

كان عمي الضُبة إذا جلس يجلس معه اثنان: كرشه ولسانه. لذلك يجلس دائما مكان ثلاثة ويوسع له في حالة الضيق. وكان بطنه أكبر منه بكثير، ضعفه أو أكثر بقليل. ولأنه قصير القامة، قريب من الأرض بشكل كبير، فإنه إذا مشى يظهر كأنه يمشي على هذه البطن مباشرة. لهذا لقب بأسماء كثيرة منها "البطة". ولكن أشهر كنياته "أحمد يوسين"، فقد كان "حاملا" دائما و"كرشه في فمه"، كما يقال!

أما هزة البطن عند عمي أحمد فلا يمكن أن تضاهيها أكبر راقصات البطن لأنه يتكلم من بطنه، ويضحك من بطنه، ويتنفس من بطنه، إضافة إلى بطنته العظيمة: شره بشكل مخيف!

صديقه المعمر يتخيله دائما في بذلة الرقص عندما يجالسه فلا يكف عن الضحك في سره: ضُبة يرقص، ما أبشع هذا المنظر!

ولا يخلو مجلس أنس وشراب من حضور عمي أحمد يوسين. وعمي يوسين لا يستطيع أن يحكي نكتة واحدة ولكن عندما يتعب السمار من النكت والغناء والرقص يبادر أحدهم، بخبث، ولكن بتواطؤ مع باقي الحاضرين، فيتصنع الجد ويتحدث في موضوع يختاره بعناية شديدة ولا يتوقف عن الكلام إلا إذا أخذ الكلمة عمي يوسين، عندما يأخذ الكلمة اليوسين لا أحد يقدر على استرجاعها منه. والواقع أن لا أحد يفعل ذلك عن جد. البعض منهم يتظاهر فقط بأنه يريد أن يتكلم وقد يتصنع الغضب لا لشيء سوى ليجعل لسان اليوسين يدور بشكل أكبر!

الموضوع، عن أي شيء يتم الحديث؟ عن كل شيء، اليوسين اختصاصي في كل شيء: يتكلم في الدين كما يتكلم في العلم، ويتحدث في شؤون الحكاية والشعر كما يتحدث في أمور السياسة والاقتصاد، وفي البول... في الضرط، في القمل، في السحر، فيما لا يخطر ببال، أحيانا، وفي كل ما يخطر على البال، غالبا... لسانه يعرف كل شيء ومخه يطاوع هذا اللسان بشكل فريد، ملغز، أي أن عمي يوسين لا يفكر، يتكلم فقط، يتكلم من لسانه وحده، بل من بطنه، فلا يستطيع أن يوقفه أحد، أن يغلبه أحد.

الغلب؟ طبعا، لسان اليوسين، أي بطنه، سلاح، يقاتل به الرجل، يصارع، فلا يهمه تناقض أو تكرار، ولا يهمه أن يسمع أحدا، فصوت لسانه يكفيه، كصدى لبطنه: يسمع اليوسين من لسانه كما يتكلم منه!

هذه هي مصادر قوة عمي يوسين: لسانه الذي لا يغلب وبطنه التي لا تشبع، يتكلم وهو يبلع، كل شيء، الطعام والكلام، لا يمل ولا يقنع، وكم يضر ولا ينفع!

وبطبيعة الحال فهذا أيضا مصدر ضعفه الكبير وقد عرف الجميع، بما في ذلك بعض الأطفال، كيف يستغلون ذلك للتسلية والضحك عليه: "اضربه على كرشه" أو " جر لسانه" تشبع ضحكا أو كلاما!

أكثر هؤلاء يتصنع الجد، والاحترام والتقدير، ليضحك بشكل أفضل، فيوهم اليوسين بأنه في حاجة إلى فتوى، أو فقط نصيحة، وقد يعد وليمة ويدعو إليها بعض الأصدقاء حتى تكتمل جلسة السمر وينطلق لسان اليوسين وكرشه في راحة وسرور: يا لسعادة البطن واللسان!

اليوسين مطلوب في كل مكان، عند المغاربة والأجانب، لهذا الغرض، وبهذه الروح، ولكنه يعتقد أن الناس معجبون به، بكرشه ولسانه، يحبونه، ويقدرونه، ويقبلون على علمه الذي ليس علما، فهو لا يملك ذرة من المعرفة، أو هي معرفة أقرب إلى الهذيان، من نوع ما يقول عنه الناس "جب، يافم، وقل"!

فلا غرابة، والحالة هذه، أن يستعرض نفسه، في كل مكان، أن يتحرك بكل ما يستطيع من خيلاء، أن يغير هيئته، ولباسه، ويتشبه بالمستعمرين!

أصبح عمي الخائن، الذليل، الحامل لكل عار الأهل، مثيرا للسخرية بشكل أكبر لدى أصحاب البلد: القميص العصري، تحت جلباب

الصوف، السروال الغربي الذي يتدلى فوق حذاء أجنبي قديم، وياقته الوسخة المشدودة بربطة عنق متعددة الألوان، والمعطف الفضفاض فوق الجلباب، والقبعة الباسكية على مقدمة الرأس، الذي استغنى عن "لقطب" التقليدي واستبدله بـ"لفريزي" الغربي، والسيجارة المشتعلة دائما بين شفتيه بينما تحرك يده اليمنى المضطربة عكازا فرنسيا لا يكف عن الترنح: سلحفاة تدب، ضفدعة تمشي على قائمتين، حامل، على وشك الوضع، تتكيء على عكاز، ضُبة حائل؛ اليوسين!

إنه يقلد مسيو برنار، المعمر الذي يأتي إلى البلدة، مرتين في السنة، ليشتري الغلال، ويزعم أنه صديق؛ عمي الأضحوكة، عمي الأكذوبة، عمي الذي يخيف وهو يضحك، يضحك وهو يخيف، يتوهم أنه يحرس الأهل من دوران الزمان، فيدور مع الزمان بشكل مسلٍ كأنه خذروف، شبه خذروف: يوسين!

ما اجتمع كرش ولسان في إنسان كما اجتمعا في عمي اليوسين ولا ضحك قوم على حامل كما ضحكوا على اليوسين، عمي اليوسين، فأذل نفسه وأذلنا معه: وداعا، إلى الجحيم، يا ذل اليوسين!

# 8

يتبعني شبح آخر، شبح زاحف، هو غير شبح الضبة، منذ خروجي من البلدة. شبح يشبه ظل أفعى ولكن بوجه آدمي. وهذا الشبه وحده يملأني رعبا. أعرف أن السمع أهم وسائل الحذر من الحيات. إنها تحك جلدها بعضه ببعض فتحدث كشيشا، مثل الصفير، ومنه ما يشبه صوت الدجاجة، عندما تريد أن تبيض. لذلك فإن المرء ينبغي أن يكون جيد السمع، حذرا، ليدركه قبل أن تلتف عليه، فتهشم عظامه، تطحنها، أو تنقض على رأسه فتلتهمه.

لقد سمعت مالا يصدق عن هذه الحيات. ولقد رأيت أكثر من واحدة منها في البلدة. ومن هذه الأخيرة أفعى ملتفة على أحد أخوالي في الساقية. أمر رهيب. كان الرجل مجذوبا أو ربما لم يكبر بشكل عاد فتوقف نموه

عند تلك المرحلة التي لا يميز فيها الطفل بين النار المحرقة وحليب أمه. يفعل أشياء مع الناس لا يفعلها راشد ويتصرف مع الحيوانات كما لو أنها جميعها بشر. يضر نفسه باستمرار، ولكنه كان أقرب أخوالي إلى قلبي. معه على الدوام شيء، للأكل أو اللعب، يقدمه إليّ كهدية. يخرجه من جرابه كأنه يخرج كنزا، سرا، ويقدمه إلي بابتسامة تشبه ابتسامة رضيع. مرة أهداني عقربا سوداء حية: خالي لمشير!

نزل إلى الساقية ليغتسل كعادته ويلعب في الماء ولما تعب غطس رجليه حتى الركبتين في الساقية وشرع يحملق في الشمس الحارة. كانت الحية تستريح على جذع شجرة زيتون قديمة. انقضت على لمشير في حركة واحدة من الخلف. صرخ صرخة واحدة واستسلم لأنه لم يعد قادرا على الصراخ. سمعه أحد العمّال فجرى نحوه ولكن العامل كان يعرف أن الحية إذا أدخلت صدرها في جحر لا يقدر أقوى الرجال على أن يخرجها منه فبالأحرى أن يفك منها ضحية.

طلب العامل النجدة، لم يتأخر الرجال. أقاموا شبكة استغاثة، كل واحد يطلب العون بأعلى ما يستطيع من صوت. وحين بدؤوا يجتمعون من حول لمشير كانت الحية قد أصبحت دوائر خانقة، مثل عجلات المطاط، تلتف حول جسد الضحية وتشرع في طحنه.

في لحظة من تلك الحركة، التي كنا نسمع فيها صوت عظام لمشير وهي تتهشم، أخرجت الحية عنقها وفتحت فاها وشرعت تتوجه به نحو رأس المسكين، في هذه الهنيهة انقض عليها رجل بضربة منجل فاصلا رأسها عن

باقي عنقها، سقط الرأس في الماء وظل يتحرك إلى أن جرفه التيار. أما باقي الجسد فكان لا يزال ملتفا بإحكام بجثة المجذوب. استعملت المناجل والسكاكين لتقطيع تلك الدوائر. تطلب الأمر وقتا طويلا من الرجال لكي يخلصوا ما تبقى من لمشير. كانت أطرافهم ملطخة بدم كثير. ولما انتهوا من هذه المهمة كانت جميع عظام لمشير مكسرة ومختلطة بالأمعاء: تقريبا عبارة عن كفتة، وعلى العكس أشلاء الأفعى، فقد ظلت تتحرك!

وهذا الأمر لم يكن غريبا علينا فالأفعى قد تظل متحركة أياما بعد موتها وذنبها لو قطع عاد كما كان وإذا قلع نابها رجع بعد ثلاثة أيام إلى حاله: رعب حكايات ومشاهد الطفولة!

تبدأ تربيتنا على الحذر من الحيوانات السامة باكرا في تلك الطفولة، خاصة من الحيات. إنها قد تنزل مع ماء الساقية من منبعها في رأس الجبل. وقد تأتي تابعة فريسة تهرب منها إلى الحقول والأشجار فتصطاد بدلها طفلا أو امرأة أو عاملا منهمكا في عمله إلى درجة الغفلة. وكانت إذا مرضت تقصد أشجار الزيتون لأنها عندما تأكل أوراق الزيتون تشفى من مرضها!

تعليمنا الحذر يقوم على التعرف على كشيش الأفاعي، من بعيد، والقدرة على تمييز ظلها تحت نور الشمس، خاصة عندما تكون الشمس شديدة الحرارة: الصيف، مثل الشتاء، يأتي بالخيرات، لكنه يأتي كذلك بأنواع كثيرة من الموت!

كنا إذن نتعلم كيف نحذر من غير أن نخاف، نتعلم كيف نحتاط

ولكن من غير هلع أو، على الأصح، من غير أن نبالغ في الخوف، ولا في الثقة في النفس.

لقد كان الموت من حولنا، ومعنا، في كل مكان. لهذا، وأنت صغير، ينبغي أن تتعلم كيف تكون حذرا قدر ما تستطيع، فقد تقتلك عقرب، وأنت ترتدي حذاءك، أو أفعى، وأنت تتحرك في فراشك، أو تورد بهيمة: الموت، يردد الكبار، مجاور للحياة، ملتصق بها، يبدو أقوى منها، ولكن الحيطة والحذر يجعلان الحياة أقوى، وأطول، من الموت!

وتكرر جدتي فاضم على مسمع امرأة تبكي طفلها الذي غرق في بئر:

– نحن نلد للموت، وما نجا منه من فضل الله، فالناس، صغارا وكبار، تموت من السموم، كما تموت من المرض، كما تموت من الفيضان، وحتى من الجفاف، كل نفس ذائقة الموت، كما هي ذائقة الحياة، شعرة تفصل بين الموت والحياة، تلك الشعرة ذاتها هي التي تفصل بين اليقظة والغفلة، بين التهور والشجاعة، بين الذل والعز، وليس يجدي بني آدم أن يظل خائفا أو في حداد، احذر وتوكل!

هذه هي العبارة التي كنت أريد أن أتذكر: احذر وتوكل!

وتوكلت على الله: أخرجت سلاحي، قصديرة بريتها أحسن براء، واختفيت أتربص للظل الزاحف ورائي باستمرار، المتعقب في السر لخطواتي لينقض علي في لحظة غفلة!

من حسن حظي أني لم أنتظر طويلا. هي حية رقشاء، أو رقطاء، أي بها نقط سود وبيض على وجهها وأسفل عنقها. ولكن وجهها يشبه وجه زوجة عمي... هي زوجة عمي بالذات والصفات!

إنها رقشاء مثلها، وصماء لا تسمع أنينا، ولا شكوى، ولا تضرعا. وصفيرها يعمي البصر إذا صاتت من غضب أو مكيدة. الرقشاء، الصماء، العمياء، التي قيل فيها المثل، أظلم من أفعى، لأن الأفعى لا تحفر جحرها ولكنها تأتي إلى جحر حفره غيرها فتحتله وتستقر فيه:

– وكان الناس، تحكي جدتي فاضم عن الزمن الغابر، إذا قصدت بيتهم أفعى تركوه وأخلوه لها!

أنا هارب من هذه الأفعى، مغادر جحري وعزي. وحين استيقظت من نومي حمدت الله على أن ذلك كله لم يكن سوى في الحلم، أني لم أتربص بها إلا في الحلم، وإلا كنت قطعت رأس الرقشاء أو فقط أحدثت في جسدها جروحا صغيرة وتركت النمل يقتلها بالتدريج!

# 9

لم أكن أفكر، من بين أكثر ما أفكر فيه، سوى في أمرين يتعاقبان على ذهني، وأحيانا يتداخلان: أولا، من أين سآكل، أو على الأقل أخدع الجوع؟

ثانيا، ينبغي، بعد ذلك، أو في نفس الوقت، أن أجد مكانا واسعا، مليئا بالكائنات، كالبحر، أغطس فيه وأختفي عن نظر الناس بشكل تام!

بالنسبة للأمر الأول لم أجد صعوبة تذكر: أتسول!

ومالي؟ أتسول وأنا أغني، لكي لا يشعر أحد بأني ذليل، فأنا مجرد عابر سبيل يعبر علنا عن حاجته ثم إن لي نصيبا من الصدقة عند جميع الناس فقد كان أهلي، قبل عهد اليوسين، يؤدون حق الفقير، والمسكين، واليتيم، وعابر السبيل، وهم يطلبون منهم البركة وجميل الدعاء: سأمنح المحسنين

بعضا من دعائي وبركتي، شيئا من نصيبي مما جمعه أهلي من بركة ودعاء، وهو كثير!

فكرت في السرقة، في الأول، وأنا أقول: نصيبي من زكاة، وصدقة، من لا يزكي ولا يتصدق!

ولكن الناس، على العموم، طيبون، وما مددت يدي إلى أحد ورجعت إلي خائبة، فلم أسرق؟ أكثر من ذلك: أحيانا كنت أتعب من كثرة الخبز فأتصدق به بدوري على الكلاب حتى أن كلبا صغيرا، جميلا، قد تبعني، ثم صاحبني طوال تلك الرحلة بفضل ما كنت أطعمه من خبز!

كان "أكمى"، هكذا أسميته، نحيفا، مثلي، وسخا، مثلي، صغيرا وضعيفا، مثلي، وحيدا كذلك لأني حين جلست، في ظل شجرة، أستريح، ذات ظهر، جاءت مجموعة من الكلاب تنبح علي كأنها تأمرني بمغادرة المكان. تذكرت أن زوادتي مليئة بالخبز فرميت إليها بالكثير من الرغيف. استمرت تنبح، بعض الوقت، وهي تنظر إليّ، وإلى الخبز، من حين لآخر، ثم هدأت وظلت تنظر إلى الخبز وحده.

لم يتقدم أي كلب نحو الخبز، مع ذلك، ما عدا "أكمى": تقدم بحذر نحو قطعة صغيرة من الخبز، تأملها قليلا، شمها طويلا، مد لسانه يتذوقها ثم أقبل على ازدرادها بهدوء بينما بقيت الكلاب الأخرى تنتظر إلى أن أغادر المكان!

أتم "أكمى" أكل بعض من تلك القطعة من الخبز ثم تمدد فوق الباقي وأخذ ينظر إلي بلطف عجيب بينما شرعت الكلاب الأخرى في النظر إليّ

دون أن تنظر إلى الخبز: ماذا يعني كل هذا؟ منذ الرابعة من عمري وأنا أخاف من الكلاب، لا آمنها، فقد سبق وخدعني كلب غدار ببيت أحد أخوالي!

أعدت ترتيب زوادتي ثم وقفت وشرعت في السير من جديد في اتجاه الشمال كما وصفه لي ذلك الخال. أخذت الكلاب تبنح عليّ من جديد. تعمدت ألا ألتفت جهتها وأن أظل هادئا كما لو أنها غير موجودة. احتياط، من الكلاب، سمعته مرارا من أهلي ثم تعلمت أنه قد يصلح كذلك لمواجهة بعض الكلاب البشرية!

توقفت الكلاب عن النباح فأدركت أني قد اختفيت عن نظرها، لم تعد تراني، ولا تسمعني، ولا تشمني. التفت ورائي لأتأكد من الأمر. كان "أكمى" على بعد حوالي مترين مني، غارقا في ظلي:

– ماذا تريد مني، أيها الساذج؟ أنا غريب ومتشرد، هل تريد أن تتغرب وتتشرد بدورك؟

ينظر إليّ بعينين مضيئتين، تلمع فيهما الشمس، ولكنهما هادئتان:

– اسمع، يا "أكمى"، ارجع إلى بلدتكم وابق مع أهلك، وإذا لم يكن لك قريب قد " قلب عليكم الجلابية" لا تغادرها مهما كان السبب، وإلا هل تظن أن التشرد هكذا، والبعد عن الأهل، مهما قسوا عليك، مسألة سهلة؟

لمعت عيناه بشكل أكبر:

– تبكي؟ ها أنت قد بدأت تبكي والرحلة لا تزال في البداية، ماذا ستفعل لو أوغلت في البعد والتشرد، ماذا ستفعل، قل، أيها البريء؟

الواقع أني أنا الذي كنت أبكي. كنت قد غادرت تزنيت، منذ أكثر من ساعتين، و لم ألتجيء فيها إلى أحد. لمن ألتجيء من هؤلاء الخونة من كل أهلي، ألم يبيعوني جميعا، ألم يضحوا بي كلهم ؟ ومن أجل ماذا، خانوني؟

سمعت عمي يقول لجدتي فاضم بعد أن توسلت إليه لكي يرفق بي:

– هذا الولد يشبه والده في كل شيء وإذا بقي معنا، إذا بقي حيا فقط، فإنه سيعيدنا إلى العهد القديم، وهذا عهد قد مات منذ أن دعا السلطان إلى وقف الجهاد والاستسلام، فهل نتركه ليعصى السلطان ويجر علينا ويلات الفرنسيس؟

لقننا معلم القرآن، وهو يعلمنا قواعد الصلاة، أن السلطان أمير المؤمنين وأن طاعة أمير المؤمنين من طاعة الله. ولما استفسرتني جدتي فاضم حول ما يدعيه عمي أجبت بعفوية وحسرة:

– كيف أعصى السلطان، يا جدتي فاضم، وهو أمير المؤمنين، هل أعصى الله؟

قالت الجدة بصوت خفيض:

– لا إله إلا الله، التضحية بفرد خير من تشتيت شمل أسرة!

لقد ضحوا بي، أنا كبش الفداء، فليكن: أي بحر سيسعني لأختفي عن

أنظارهم؟ وأي مكان سيحضنني لأختفي عن نظر أبي وأجدادي؟

وجدت "تزنيت"، بالإضافة إلى أنها تضم أحد الخونة من أهلي، قرية كبيرة، جميلة، ولكنها أصغر من أن تفي بمرادي، من أن تخفيني. لذلك عبرتها مسرعا ومن غير أن أمد فيها يدي إلى أحد. كانت زوادتي لا تزال مليئة بالخبز ومعي ما يكفيني من الماء.

وحين جلست في ظل تلك الشجرة، والكلاب تنبح عليّ، قلت لنفسي:

– هذه الكلاب لأهلي، أهلي في "تزنيت" الذين جاءوا إلى هذه المدينة الطيبة من أجل نشر الخيانة والغدر!

فمن أين جاء "أكمى"، من أين خرج لي في هذه الظهيرة الحارة بدوره؟ ألا يكون كلب أحد بنات عمي اللائي كن يجتهدن، ويكثرن، من ضربنا، أنا وأختي، وإهانتنا ثم يسبقننا ويشتكين لأمهم ولا يرتحن إلا أن يشاهدن، سعيدات، منشرحات، العم يجلدنا؟ لليوسين سبع بنات و لم يرزق بعد بالذكر، تبحث عنه زوجته بأنيابها، لكي لا أظل وحدي الذكر بين قبيلة بناتها!

قالت جدي فاضم، وهي تفاوض اليوسين:

– نزوجه من الآن إحدى بناتك ويبقى خيرنا بيننا!

رد اليوسين دافعا كرشه كأنه يهدد بها الجدة:

– لن يتأخر في تطليقها عندما يكبر وتموتين!

نبح "أكمى". لأول مرة ينبح "أكمى" منذ التقيت به. مسحت عيني ونظرت إليه. ظل ينبح نباحا خفيفا ولكن حاد: هل يبكي بدوره؟ أشفقت عليه. أخرجت قطعة خبز ورميت بها إليه. لم يقرب الخبز. ظل ينظر إليّ. قلت له:

– تعال، تعال جنبي، هيا، تعال!

تمدد فوق قطعة الخبز وظل ينظر إلي. ماذا يريد مني هذا الجرو الساذج، هل يعرف أني قد أجوع، أو أصاب بنوبة نهم، فآكله، تماما كما فعل بي أهلي؟

وقفت لأستأنف المشي فنهض وتبعني. سار ورائي على بعد حوالي مترين. ولكنه توقف من جديد وشرع في نباح قوي. بحثت عن اتجاه صوته. كان ينبح على ضب صغير. قلت له:

– هيا انقض عليه، ماذا تنظر؟

وحاصرنا الضب الصغير حتى أمسك بعنقه "أكمى". كانت هذه أول وليمة، لي ولأكمى، من اللحم المشوي: أكلت اللحم، بشهية ولذة، ورميت إلى أكمى بالعظام التي لعب ببعضها قليلا، قبل أن يأكلها، ثم طمر الباقي!

# 10

ليلة حبسي: كم بدا لي العالم مختلطا، من صنع سلحفاة، تلك التي يقال عنها إنها لا تعيش في غير الماء العكر!

كانت الرقشاء على علاقة مريبة مع "البعوضة البوّالة"، معلم الكتّاب، لا يمر يوم دون أن تزوره. تتحدث إليه طويلا وتخرج من عنده ومعها دائما شيء ملفوف في ثوب أبيض . ولم تتوقف سخرية زملائي مني، بسبب ذلك، إلا عندما انقلبت حالي وصرت حبيس الكتّاب: ألسنة الأطفال، في مثل هذه الأمور، أطول من ألسنة الكبار، لأن الخبث الذي يحركها يسليهم ويخرق رتابة حياتهم، فليس خبثهم أكثر من لعب، أكتشف وأنا أكبر!

وفي يوم شديد المطر والبرد خرجت من عند المعلم صحبة رجلين كانا

ينتظرانها بالكتّاب. كان الرجلان، طيلة وجودهما في الكتّاب، صامتيْن، داخل جلابيبهما الصوفية الكثيفة، السوداء، رأساهما ملفوفتان بعمامتين زرقاوين، سميكتين، تغطيان كذلك مجمل الوجه بحيث لا يظهر منه سوى العينين، عينان واسعتان، سوداوان، وقد زاد الكحل من سوادهما وسعتهما.

كان اليوسين غارقا في نومه، بعد طول سهره، فأيقظته الرقشاء بلطف لا يخلو من عنف، ولما فتح عينيه قالت له:

– عندك ضيوف من بلاد بعيدة، ضيوف جاؤك ببشرى، قم وقابلهم!

وقام الضبة إلى بيت الضيوف فوجد الرجلين واقفين كأنهما شبحان عظيمان، قال:

– السلام... صباح ...

لم يرد عليه التحية أحد ولكن أحدهما سأله:

– أنت أحمد بن محمد...

رد اليوسين:

– نعم، أنا....

تابع الرجل:

– وأمك فاضم بنت...

أجاب الضبة:

– نعم، نعم...

أضاف الرجل:

– وجدك محمد بن محمد المدفون قرب أخيه محمد بن محمد؟

رد اليوسين وهو يرتعد من الخوف:

– صحيح، صحيح...

استمر الرجل في الكلام:

– تأمر زوجتك بمغادرة هذه القاعة، بقية الحديث لا ينبغي أن يسمعها غير الرجال!

لم يستطع اليوسين أن يقول شيئا لزوجته ولكنها انصرفت من تلقاء نفسها وهي تقول:

– أنا في المطبخ، سأعد إليكم الفطور!

ولما اختفت نطق الرجل الثاني الذي لم يكن قد تكلم بعد:

– يا أحمد بن محمد بن محمد وبن فاضم بنت..

كان عرق كثير قد بلل جسد اليوسين. تابع الرجل الأول:

– أبشر!

تنفس اليوسين قليلا. تابع الرجل الثاني:

- في مكان نعرفه جيدا لك كنز عظيم تركه لك أبوك وعمك!

فغر اليوسين فاه. أضاف الرجل الأول:

- مكتوب باسمك عند الجن، ذهب خالص وماس حر!

قال الرجل الثاني:

- حوالي قنطار أو يزيد كثيرا!

أكد الرجل الأول:

- ماس وذهب!

تحول خوف اليوسين إلى فرحة ولكن الرجلين استدارا في مكانهما وهمّا بالخروج. صرخ اليوسين:

- لا، لا تنصرفا هكذا، من سيستخرج الكنز إذا رحلتما؟

رد أحد الرجلين، من غير أن يتوقفا:

- الله أعلم، نحن مجرد بشيرين، وقد انتهت مهمتنا!

وحاول أن يستبقيهما ولكن دون جدوى. خرجا من البيت واختفيا وسط المطر كأنهما بالفعل شبحان. كانت الرقشاء قد عادت:

- مالك، ماذا قالا لك؟

لم يطاوعه لسانه:

- ك.. ك... كن... ز!

قالت:

- كنز؟

رد محركا رأسه بالإيجاب. تظاهرت بالمفاجأة:

- شفت سعدي وميموني من يوم ما دخلت عليك؟

ودبر الباقي بالكتّاب بين المعلم والرقشاء ورجل آخر إضافة إلى الرجلين سابقي الذكر: يدفع اليوسين مبلغا من المال تعبيرا عن حسن نيته تجاه الجن، حرّاس الكنز، ثم يحضر طفلا زهريا في ليلة تم تحديد تاريخها للشروع في استخراج الماس والذهب.

لم أكن أعلم أني الطفل الذي سيستعمل في هذه العملية. و لم أعد آكل البقايا، ووحدي، كالكلب. أصبحت الرقشاء أكثر لطفا، كثيرة التودد إليّ، و لم تعد تسمح لبناتها بالكيد لي والسخرية مني!

سألتها وقد وضعت أمامي طبقا من اللوز والجوز والثمر:

- ما معنى زهري، طفل زهري؟

ابتسمت لي ابتسامة عريضة:

- هات يدك!

مددت إليها باليد اليمنى. قالت:

- الولد الزهري يكون له خط عرضي في راحته، مثل هذا الذي فيّ يدك!

وأضافت:

– مد لسانك!

أخرجت لساني. قالت:

– ويكون له خط طولي في لسانه، مثل هذا!

لم أر الخط في لساني، بطبيعة الحال، ولكنها أضافت:

– أنظر إليّ!

كانت تتأكد من شيء ما في عينيّ فأصبحت شبه حزينة لكنها قالت:

– كُلْ، كُلْ واسكت، كُلْ ما ينفعك!

سألتها:

– أنا زهري؟

انتفضت غاضبة وقد ازدادت نسبة البقع السود على وجهها وعنقها:

– من قال لك هذا؟ كُلْ واسكت، كُلْ!

من قال لك هذا؟ كلّ رفاقي في الكتّاب: يعرفون أني سأذبح، ذات ليلة سوداء، قربانا للجن حارس الكنز فقط لأني زهري!

ولكني كنت على استعداد لفعل أي شيء من أجل زوجة عمي شريطة أن أظل موضع لطفها وتوددها، أن أنعم بالسلام مع بناتها ومع عمي!

وجاءت الليلة الموعودة، ليلة سوداء بكل المقاييس: برد شديد وظلام

حالك. بدأت الطقوس بعد العشاء مباشرة. كانوا خمسة رجال، إضافة إلى عمي، متسرعين، ملثمين، في جلابيب سوداء. قال أحدهم، كانوا ينادونه بالفقيه:

- يجب أن ننتهي من هذه العملية قبل طلوع الفجر!

بدؤوا بإشعال المباخر وقراءة التعازيم والتعاويذ فامتلأ المكان بروائح البخور وأصواتهم الغليظة قبل أن يقول الفقيه:

- انتهينا من التلبيس، كل الجن قد غادر المكان!

تقدم مني رجل عظيم الخلقة وأمسك بي من كتفي لينتشلني من المكان الذي كنت جالسا فيه قرب عمي. أمرني الفقيه:

- افتح كفك اليمنى!

فتحت كفي بصعوبة، كانت كأنها مجمدة، أضاف الفقيه، بعد أن وضع شيئا فيها:

- أغلق كفك وامشِ، تحرك بتؤدة!

سرت في الظلام الحالك، لا أرى شيئا، بعد أن دفعني الرجل العظيم الخلقة في اتجاه معين. ساد صمت رهيب وبداخلي رعب كبير. اصطدمت بشاهدة قبر فسقطت. انتشلوني من هناك بسرعة فائقة وبدؤوا في الحفر في المكان الذي سقطت فيه. ظلوا يحفرون حتى شرع الفجر في الطلوع. لم يكونوا يستخرجون غير العظام البالية، المتآكلة. أمرهم الفقيه:

- انتهى، توقفوا عن الحفر!

واقترب مني الفقيه وأخذ يتفحص عينيّ على الضوء الأول للفجر ثم قال:

- الولد غير مكتمل الزهرية، أخطأنا في الولد!

وانسحبوا مجتمعين يتبعهم عمي. وحين عدت من ذهولي، وذعري، وجدتني مكبل اليدين والقدمين في الكتّاب: ممنوع من المغادرة!

# 11

ونحن في منتصف الطريق، بين مدينتيّ تزنيت وأكادير، لاحظت أن "أكمى" مازال يسير ورائي ولكن على مسافة أقرب مني ثم صار يقترب أكثر، تدريجيا، مني إلى أن أصبح يسير بموازاتي. لماذا يصاحبني هذا الكلب؟ أمن أجل كسرة خبز، أو ضب صغير، يغادر بلده ويتبعني أم هناك شيء آخر يدفعه إلى ذلك؟ أنا لو وجدت مثل هذه الكسرة، كسرة خبز أطعمها بقليل من الكرامة والحب، ما كنت غادرت مسقط رأسي ومدفن أجدادي!

فهل يتوهم هذا الكلب الساذج أني أحبه وأحترمه؟ ولماذا علي أنا أن أحبه أو أحترمه؟ ألم أرمِ إلى الكلاب، التي كان يعيش معها، بكل ذلك الخبز فقط لأشتري منها سلامتي؟ أو تراه يظن ذلك من كثرة كرمي؟

يخيل إلي أنه مثلي يتيم، فقد كل الأحبة، و لم يعد له سوى من يكرهه

ويعذبه: أعرف همجية الكلاب وهي تقتتل من أجل الطعام. راقبتها طويلا. وراقبت أكثر ذلها وهي تتنافس على كلبة أو تلتصق بها: في طبعها الذل، رغم كل وفائها المزعوم للإنسان، ألا يترك الكلب، أو الكلبة، بيت العز من أجل ذلك الالتصاق المهين؟

وأصبح ينبح فجأة، ونحن على مشارف أكادير، كلما رأى شخصا أو سمع صوتا: هل يريد إيهامي بأنه يحرسني؟ هذا الجرو القذر، العليل، الذي يشبه فأرا، يحرسني أنا؟ ممن؟ بالطيف، قد نصادف كلبا حقيقيا فيلتهمه في لقمة واحدة: أضحك!

ومع ذلك فهو يسير جنبي جادا، حازما، وينبح جادا، حازما، ومن حين لآخر ينظر إلي جادا، حازما كأنه يقول لي:

– لا تضحك، لا تهزأ، أنا كلب حقيقي!

وبينما نحن كذلك، أنا في ضحكي، وهو في جده وحزمه، تذكرت، من جديد، صورة عمي الخائن، الذليل، الكلب الضعيف، في مواجهة المستعمر، والأسد الضرغام، معي أنا وأختي، الحامل حملا كاذبا، الذي يشبه المهرج، بقميصه العصري المفروك، تحت جلباب الصوف، وسرواله الطويل المتدلي على أطراف حذائه القديم الملمع بمبالغة، وربطة العنق المتعددة الألوان الباهتة التي تلف ياقته التي تظهر عليها بقع وسخ كثيرة، وهذا المعطف الفضفاض فوق الجلباب الكثير الثنايا، والقبعة الباسكية، التي تجعله يظهر كبحار يوناني، أو برتغالي، نسيه مركبه، منذ شهور، بلا مال ولا طعام، والعكازة، التي تشبه عصا أعمى، والسيجارة نصف

المشتعلة بين شفتيه، التي تجعله يبدو وكأنه خارج من جهنم، أو داخل إليها: عمي الفزّاعة المصنوعة من تبن وقماش بالٍ ودخان، عمي قرد الفرجة الذي يقول له صاحبه:

– نم نومة القايد!

فينام كأنه القايد!

– اشرب الشاي كما يشربه الحاكم!

فيفعل ذلك القرد معتقدا أنه الحاكم!

– امش مشي الحمام!

عمي الأكذوبة، عمي العار، عمي الذل، عمي الذي أضحك علينا الدنيا بأكملها، الذي ضربه " حمار الليل" وأكمل ضربه " بغل النهار"!

وها "أكمى" يتصور أنه عمي، يسير جنبي، متوهما أنه جاد، وحازم، وينبح، بكل الجد والحزم، كلما رأى شخصا، أو حيوانا، يمر، أو تهادى إلى سمعه صوت، يلعب، كعمي، دورا، لم يطلبه منه أحد، بشكل كاريكاتوري!

لذلك، عندما خرج لنا كلب كبير، من إحدى المزابل، ثم رأيته يتوقف وينبح في وجه ذلك الكلب، انصرفت وتركته وحده في مواجهته: تبادلا بعض النباح ثم هجم الكلب الكبير على "أكمى". كنت على يقين من أن "أكمى" سيصرع ولكنه دار حول نفسه، وعلا برأسه، حتى أصبح مثل فرفارة وأمسك بالكلب الكبير من رقبته. لم يخلص الكلب الكبير رقبته

من بين فكيّ "أكمى" إلا بصعوبة بالغة. وبدل أن يعاود الهجوم نظر إلى "أكمى" صاغرا ثم انصرف بينما ظل صاحبي ينبح إلى أن اختفى كلب المزبلة:

– هذا الجرو لا يشبه عمي إذن!

نظر إلي "أكمى" طويلا كأنه يسألني عن رأيي فيما شاهدته حتى قلت له:

– أنت لا تشبه في شيء عمي، برافو!

أحنى رأسه واقترب مني مادا رقبته فمررت بيدي على الرقبة وداعبتها طويلا بينما هو هادىء لا يتحرك. قلت لنفسي:

– "أكمى" يشبهني!

ثم فكرت وأضفت:

– أو علي أن أشبه "أكمى"!

وكنا قد دخلنا مدينة أكادير اجتمع حولنا أطفال بسطاء وأخذوا يتبعوننا متحرشين بـ "أكمى". فتحت زوادتي ووضعت "أكمى" بداخلها بعد أن أخرجت منها تلك القصديرة الحادة، والطويلة، التي تبرق في الشمس، كأنها سيف، والتي كنت أستعملها في أغراض كثيرة بالبلدة. انسحب الأطفال من حولنا ولم أعد "أكمى" إلى الأرض إلا ونحن خارج المدينة. أخذ ينظر إليّ، قبل أن يتحرك، بعينين باسمتين، مشعتين.

هكذا بدا لي نظره أم تراه انعكاس القصديرة، بفضل الشمس، في عينيه؟

# 12

وصلنا إلى مشارف مدينة الصويرة مع الظهر. أعجبني موقعها الذي تظهر فيه، مع الجزيرة والبحر، كنصف دائرة. ولكن "أكمى" بمجرد أن رأى البحر هرب نحوه. غطس في الماء طويلا ثم أخرج رأسه وأخذ يحركه بقوة من أجل أن ينفض عنه ما علق به من ماء كثير . كان يغتسل، ينظف نفسه من كل ذلك الوسخ الذي تراكم طوال الرحلة. كرر هذا مرات عديدة ثم شرع يسبح في اتجاه الجزيرة بمهارة استغربت لها:

– أين تعلم السباحة؟

رائحتي بدوري لا تطاق ولكن لم أنتبه إليها إلا الآن وأنا أشاهد "أكمى" يغتسل ويعوم:

– كيف تحملت كل هذا الوسخ طوال هذا الوقت؟

كانت أمي تقول لي كل مساء، صيف شتاء، رائحتك تشبه رائحة الأرانب، أخ، تعال أنظفك!

تضع الماء ليسخن وتشرع في فلي شعر رأسي:

– من أين لك بكل هذا الوسخ وكل هذا العرق؟

وبعد أن تهيىء الحلفاء والصابون تعريني بيد واحدة وهي تسد أنفها باليد الأخرى:

– تلعب كثيرا، وتعرق كثيرا، كأنك أرنب يلعب، وينام، حيث يبول!

أضحك. تضحك أختي:

– ما رأيت أحدا مثلك، أحدا أقذر من أرنب!

وتضيف وهي تضحك:

– أنا ألد الأرانب، أم الأرانب، أنت وأختك!

ثم تنشفني وتلبسني ثوبا نظيفا:

– الآن تجلس قرب أختك، تنتظر العشاء وتنام مع الدجاج، مثل أرانبك!

وأنسل إلى البطانية قرب أختي التي عادة ما تستحم قبلي محاولا جهدي ألا يلمس جسدي شيئا من جسدها. قبل هذا كنت أحتل هذه البطانية وحدي وأقوم بأشياء كثيرة في سري وقد أنام قبل وقت العشاء!

ولكن طوال مدة حبسي بالكتّاب كان يكفي أن أتذكر هذا لأنام ثم صرت، مع توالي الأيام في ذلك السجن، أدفن رأسي في صدري حتى تدوخني الرائحة، تخدرني، فأنام. في البداية لم أكن أطيق هذه الرائحة، كانت كجدران حبس، بقدر ما تتعالى وتتقوى أزداد اختناقا ووحدة ثم أصبحت وسيلة لنوم سريع:

– شم ونم، أقول لنفسي عندما تضيق بي!

وكانت رائحة جسد الفقيه، التي تشبه الخل المختلط بالصلصال، تضاعف من رائحة جسدي، تزيدها نتانة إضافية!

وها أنا لا أزال أحمل كل رائحة الكتّاب وقد انضاف إليها وسخ كثير تراكم مع الرحلة. أشعر بأن طبقة سميكة، من المطاط النتن، بين جلدي وما تبقى من ملابسي. أما شعر رأسي فقد صار كتلة واحدة أصلب من صخرة. تتدحرج دموع، جامدة، صلبة، مؤلمة، من عينيّ:

– أمي، يا أمي!

ولكني أبصر "أكمى" يغتسل، ويلعب، في الماء غير مكترث بالخطر فأغطس بدوري، أتعلم منه كيف أنظف نفسي بعيدا عن أمي، دون أمي!

لم يكن هناك عمق حيث كنت أغطس وأعبث بالماء الذي لم يكن علوه يتجاوز ركبتيّ فلما تعبت تمددت على الرمل وتركت الموج يلعب معي. كانت حركاته ناعمة، تشبه يد أمي وهي تمر بالحلفاء والصابون على جسدي ثم جاء "أكمى" وأخذ يلعب معي حتى نسيت يد أمي. ترك الماء

فجأة وخرج يجلس بعيدا على الرمل وهو يراقبني ثم شرع ينبح وهو ينظر إلي. خرجت من الماء بدوري وجلست بالقرب منه. كانت الشمس حارة جدا وكان لساني جافا. غاب "أكمى" لحظة عن عينيّ وعاد يحمل سمكة بين فكيه. وضع السمكة بالقرب مني وغاب عن نظري لحظة أخرى ورجع وهو يحمل سمكة أخرى. أكل السمكة الثانية وبدا لي أنه يريدني أن آكل السمكة الأولى. دفعت بهذه نحوه:

– سمك ميت، آكل سمكا نتنا، عفنا كهذا؟

والواقع أنه لم تكن تنقصني الرغبة. كانت فقط شدة النتانة تمنعني من التهامه. فقد كنت جائعا، أتضور جوعا لكني اكتفيت ببعض الخبز اليابس الذي أخرجت من جرابي. التهمته وكأني آكل ألذ حلوى في الدنيا بينما "أكمى" قد شرع في أكل سمكة ثالثة بشهية لا تصدق!

مالت الشمس أكثر نحو الغروب، بالرغم من أنها لا تزال حارة، وبدأت ريح الشرقي تتقوى:

– يالطيف، ياسلام، حين تهب هذه الريح على مدينة الصويرة الجميلة، الساحرة، أفظع من العواصف الرملية، يحكي والدي، قبل وفاته بأيام قليلة!

ونحن نسير في اتجاه الميناء لاحظت أن عيون النساء فاتنة، قاتلات وراء النقابات السوداء التي تحملن مع حايك الصوف الذي يقوم مقام الجلابية:

– أهذه هي المدينة الساحرة التي كان يحكي عنها والدي؟

– مدينة آمنة، ليس هناك مدينة آمنة مثلها في البلد، تنام حيث تشاء، أو تترك سلعة... أمان تام!

هل بسبب هذا السحر، وهذا الأمان، فكرت يومها في الاستقرار بالصويرة؟

دخلت إلى الميناء. تركت أكمى يطارد النوارس. فكرت في طلب عمل بأحد المراكب التي كانت تتناوب على الدخول إلى الميناء. فكرت:

– ولكني لم أتعلم بعد السباحة!

خرجت من الميناء. تخلف أكمى مع النوارس ولكنه بعد هنيهة رأيته يجري ليلتحق بي: مصمم إذن على أن يظل معي!

# 13

كان عمي أحمد، كما سبق وذكرت، إذا جلس يجلس معه اثنان: كرشه ولسانه. لذلك يجلس دائما مكان ثلاثة ويوسع له في حالة الضيق. وكان بطنه أكبر منه بكثير، كأنه ضب صغير التهم حمارا لم يهضمه بعد. كان قصير القامة، قريبا من الأرض كأنه يمشي على بطنه: كائن يخيف ويضحك!

تذكرت كل هذا عن عمي يوسين وأنا أقف على باب دكان اليهودي ماركوس. كان ماركوس نحيفا، كأنه يأكل من نفسه، قليل الكلام، كأنه يكتفي بالحديث إلى ذاته، أو كأن الكلام مع زبائنه الكثر يتعبه. وعلى العكس من هذا زوجته فهي تشبه كثيرا عمي يوسين.

لما وقفت بباب الدكان كانت جالسة بالقرب منه، منكبة على التقييد في

كناش كبير بينما عينا ماركوس على اثنين من مساعديه، كانا يفرغان عربة كبيرة من السلع التي كانت عبارة عن مواد غذائية كثيرة الاستهلاك.

كان "أكمى" جنبي، ملتصقا بقدمي اليسرى، ولكن بهدوء، لم ينبح و لم يترك قدمي وهو يراني أتوقف بباب ذلك الدكان ثم وأنا أقول:

– السلام عليكم!

لم يرد ماركوس ولكن زوجته رفعت رأسها وأجابت:

– مساء الخير!

أضفت:

– أنا محمد بن محمد، محمد الركجوني، صاحبكم، أبحث عن عمل، أي عمل، هل يمكنكم تشغيلي؟

تفحصتني اليهودية، من أسفل إلى أعلى، حتى أحسست بالعرق يتصبب من صدري قبل أن تقول:

– ممنوع دخول الكلاب إلى المحل، تخلص من هذا الكلب ثم عد لنرى ماذا يمكن أن نفعل من أجلك!

كان ماركوس قد بدأ ينظر نحوي بدوره لكنه لم يقل سوى:

– تخلص من الكلب!

حينئذ نبح "أكمى" في وجه ماركوس. قلت له:

- اسكت!

فسكت ولكن ماركوس كرر:

- تخلص من الكلب!

وأضافت زوجته:

- هذا محل لبيع المواد الغذائية بالجملة، تفهم...!

في حوالي ساعة كنت قد طفت بكل التجار والصنّاع الذين تعرفهم العائلة وكل واحد منهم يقول لي:

- تخلص من الكلب!

واحد منهم فقط أضاف:

- وإذا لم تستطع احبسه في سكناك وتعال لـ"تشتغل"!

لم يقبل أي أحد من أصحاب المساكن أن أقطن عنده مع كلب فقلت لـ"أكمى":

- ليس لنا مكان إذن في هذه المدينة!

نبح ثلاث مرات كأنه يقول لي:

- لنغادر... بسرعة... لنغادر!

قلت له:

- ولكنها أعجبتني، هذه المدينة!

نبح مرة واحدة نباحا حادا فتصورت أنه يقول:

– لنغادر!

وغادرنا "الصويرة" وفي نفسي الكثير منها!

# 14

دخلت إلى الدار البيضاء، عن طريق سيدي عبد الرحمن، الذي كان فيه موسم ضخم يشبه موسم سيدي أحمد بن موسى، الذي لم أذهب إليه ولو مرة واحدة، لكني كنت أتخيله من خلال ما يحكي الناس عنه. موسم سيدي عبد الرحمن فيه عدد أكبر من النساء والمجانين المربوطون في مواجهة الأمواج. مناظر مرعبة:

– الناس تقول إن الخوف قد يذهب بالعقل ولكنه قد يعيده كذلك أو يوقظه، تشرح لي عجوز!

مناظر منكرة:

– وتقول الناس إن هذا الفجور كله يقوي لديهم العفة، تضيف العجوز، بما يشبه الحسرة، وقد أجلستني جنبها وأطعمتني تينا وخبزا وشايا باردا!

كنت سأسألها:

- هل لك أولاد، أقارب؟

لأني شعرت بها حزينة، وحيدة، مريضة إلا أنها قالت لي، وهي تنظر إلى "أكمي":

- كلبك سيموت!

فلم أشعر إلا وأنا أقف وأبتعد عنها خائفا:

- ساحرة، مشعوذة، أكلك حرام!

ردت وهي تتكلف ابتسامة تشبه التكشيرة:

- الكلب يعوض، ولكن كيف تعوض الأهل؟

غالبت دمعي:

- كيف أعوض أهلي؟

لكنني تذكرت ما فعله بي اليوسين وامرأته وبناته:

- أهل، هؤلاء أهل، هؤلاء؟ لأفعل ما فعله جدي سنة 1090 !

م كان، أو إلام، قد هرب جدي آنذاك ؟ لم يغادر الناس أوطانهم عادة؟

سيقول لي الحسين:

- نفس الأسباب، أسباب قليلة، لكنها صعبة، هي التي تجعل الناس،

جميع الناس، يتغربون: صورة!

سأتغرب مثل جدي سنة 1090 ولكن لن تكون هناك 1490!

كان "أكمى" قد مرض ونحن نغادر "أسفي". أكل سمكا كثيرا بالميناء، السردين على الخصوص. كان الصيادون يتصدقون ببعض السمك، خاصة السردين. مددت زوادتي إلى أحدهم فملأها لي سردينا. على طرف المدينة، في اتجاه الجديدة، أوقدت نارا وشويت السردين. أكلت وأطعمت "أكمى". لكن الكلب تقيأ أكثر من مرة. كان يرد من بطنه السردينة الواحدة كاملة، وهو يتألم.

– أنا أكلت نفس السردين فلماذا لم أمرض؟

أقول لأكمى مستفسرا. غير أنه لا يرد، يظل ينظر إلي بعينين ذابلتين.

لعله السردين الطازج الذي التهمه بشره في الميناء أو... لعله أحس أخيرا بالغربة، بأنه قد فارق بلده و لم تعد أمامه أية إمكانية للرجعة: الكلاب لا تحن؟ ولكن لماذا تنتهي غالبا إلى العودة إلى أصحابها؟

سيقول لي الحسين:

– عندما أتذكر البلدة تنقبض بطني ويخرج منها سائل أصفر لا أعرف ما طبيعته!

وكنت قد وصلت إلى عين الذياب: الناس تعوم، شبه عارية، مختلطين، رجالا ونساء وأطفالا. هل هذه هي الدار البيضاء التي تسكن مخيلتي: الاختلاط والمال؟ جلست مذهولا أتأملهم يسبحون، يلعبون، يضحكون،

يتمازحون فهمست لي نفسي بالنزول إلى الماء ولكني تذكرت حالة "أكمى": لقد ملأ زوادتي، التي حملته فيها، ماء أصفر بدوره:

– هل يحدث له كل هذا من جراء الحنين أو الندم؟

وفجأة دوّى صوت مرعب وتدافع الناس في كل الاتجاهات هاربين. لم أسمع سوى:

– قنبلة... قنبلة... قنبلة!

لم أكن آنذاك قد عرفت معنى "المقاومة" فلم أدرك تعليق أحدهم، وكان خائفا يرتعد بالقرب مني:

– المجرمون، المجرمون من جديد، الفدائيون!

ولا فهمت معناها لأنه قالها بالفرنسية!

غير أن الخوف قد شملني بدوري فأغلقت الزوادة على الكلب وأسلمت رجلي للريح حتى وصلت إلى حي العنق!

وقفت أتأمل منار العنق:

– ضووؤه ساحر!

فتحت على "أكمى":

– انظر إلى الضوء كيف يدور على نفسه، انظر!

لكنه تقيأ على اليد التي فتحت الزوادة: سائل أبيض في لون الموت، لون أمي وقد فارقتها الروح!

– سأذهب بك إلى سيدي بليوط لعل بركته تنفعك!

توقفت قليلا عند ضريح سيدي بليوط أتفحصه قبل أن ألج باحته. بعض النساء والرجال، من بسطاء الناس، نائمون وكأن لا علم لهم بأن قنبلة قد انفجرت في عين الذياب، كأن ما يجري خارج الضريح لا يعنيهم في شيء. لكن أحدهم استيقظ فجأة وصرخ في وجهي:

– خرج الكلب، خرج، ألمسخوط!

كان الشرر يتطاير من عينيه، لونه أسود من كثرة الوسخ، عيناه الحمروان ترسلان نارا مرعبة:

– عفريت، قلت لنفسي!

وكان قد وقف:

– عملاق، عفريت عملاق!

هربت إلى خارج الضريح وجريت قبل أن أتذكر أن عليّ أن أذهب إلى حي المعاريف...

كنت أسأل عن الطريق إلى حي المعاريف. دلوني على ساحة فرنسا ثم على محج الجنرال مماد، الذي وصلت منه إلى حديقة ليوتي، ثم دلوني على شارع أنفا، الذي أسلمني إلى حي المعاريف. عن أي شيء كنت أبحث في المعاريف؟

لقد صادفت خلقا كبيرا يشبه، قليلا أو كثيرا، عمي اليوسين. ولكن

عدد الأجانب كان كبيرا كذلك، وفي بعض الأماكن يفوق عدد المغاربة: أناس بملابس أنيقة والنساء جميلات، نظيفات!

وفي المعاريف هناك وجدت عددا أكبر من الأجانب: فرنسيين، وإسبانا، وإيطاليين، وبرتغاليين. ولكنهم كانوا جميعا، بالنسبة إلي آنذاك، "نصارى" في مقابل "المسلمين"، أي المغاربة!

ماذا جئت أفعل في حي المعاريف ولماذا هذا الحي دون غيره، من هم "المغاربة" الذين أبحث عنهم في هذا الحي أم تراني كنت أبحث عن "النصارى" هاربا إليهم من "المسلمين"؟

الحسين واحد من أبناء البلدة، واحد من أولاد الجيران. مات والده في نفس" الحركة" التي مات فيها جدي. يكبرني الحسين بسنتين ولكنا كنا معا في نفس الكتّاب، وكان لنا نفس المستوى من تعلم القرآن، وكثيرا ما لعبنا معا، أو تسكعنا معا. ولما توفي والده تزوجت أمه ثم طلقت ثم تزوجت ثم طلقت من جديد. شرع الناس يتحدثون عنها بالسوء وينهون أولادهم عن معاشرة ابنها إلا والدي:

- الحسين ابن رجل كريم أذل أهله بعد موته فلا تسمع في الولد ما يقوله الناس عن أمه!

فتوطدت علاقتي بشكل أكبر بالحسين وصرت أقتسم معه كل شيء حتى أني طلبت مرارا من أمي أن يبيت عندنا ثم طلبت منها أن يسكن معنا بشكل دائم عندما أصبح الناس على خبر رهيب:

– انتحرت أم الحسين!

و لم يمر أكثر من شهر ليغادر الحسين البلدة دون إخبار أحد. رحل في سرية بالرغم من أنه همس لي ذات ليلة، ونحن في انتظار "سيدنا قدر".

– الناس ظلمة، لا يرحمون، أمي امرأة شريفة، تزوجت لتصونني وعرضها لكنها ماتت حزنا على والدي إذ لم تجد رجلا يعوضها حبه وشهامته!

لم نعد نسمع شيئا عن الحسين إلى أن قال مرة أحد التجار إنه رآه في حي المعاريف يشتغل في مقهى أحد أبناء البلد وأنه بخير وعلى خير!

جئت إذن إلى حي المعاريف لأبحث عن الحسين، ملتجئا إلى الحسين خوفا من رعب الدار البيضاء، من سحر الدار البيضاء، كازا بنت الكلب، المدينة الكحلة، وعفاريتها مثل ذلك الذي صادفت في سيدي بليوط، فهل يتضامن الحسين معي كما سبق وتضامنت معه، ساندته؟

ما همني في هذا الخبر كله أن الحسين قد غادر البلد هاربا وأنه قد أصبح "بخير وعلى خير"!

ولكن كيف السبيل إلى الحسين؟

في الدار البيضاء مقاهٍ كثيرة والسوسيون فيها كثر:

– في المعاريف مقهى واحدة لسوسي من تاركجونت!

أحسست ببعض الراحة فقلت لـ"أكمى" الذي كان نائما في زوادتي:

- سترى، يا أكمي، سترى، سنصبح بدورنا بخير وعلى خير!

كانت المعاريف معروفة عندنا في البلدة ويتحدث عنها الأهل من التجار بالكثير من الإعجاب والغبطة. منطقة من أخصب جهات الشاوية. أراضيها شاسعة وجيدة التربة. وكانت فيها قرية كبيرة تسمى الركادة هي مركز واحدة من أشهر القيادات التي عرفتها الشاوية وكان القايد محمد العربي أشهر قيادها في ذلك الوقت: رجل قصير القامة لكنه أمضى من السيف وأدهى من ثعلب، يقال والله أعلم. كانت هذه القبيلة تأتي، كل صيف، إلى هذا المكان، الذي يقال إنه سمي باسمها، من أجل تصدير منتجاتها الفلاحية والحيوانية إلى أوروبا. غير أن أهلنا من التجار عرفوا كيف يتعاملون مع المعاريف ليأخذوا منهم، على سبيل الشراء أو الإيداع، بعض البضائع للمتاجرة بها في الجنوب، أو يبيعوا إليهم بعضا مما يجلبون من سلع إلى المعاريف.

ورغم قول الأهل بأن هذه القبيلة ذات علاقة مريبة بالاستعمار، كما هو الشأن بالنسبة لأغلب القيادات آنذاك، والتي كان أصحابها موالين للمستعمر ومتحالفين معه، فإن أهلنا قد حافظوا على روابط التجارة تلك ولم يتعرضوا لأحد من المعاريف بسوء. كانوا يقولون إنهم يحترمون السوسيين ويعمل الكثير منهم معهم، أو بالقرب منهم، معززين مكرمين. وعلى كل حال سيزول عزهم بعد زوال الاستعمار، تلقائيا أو غصبا!

وقد وقعت حادثة غريبة، وضعيفة المصدر، في نفس الوقت، مفادها أن جدي ذات يوم، وهو هنا في المعاريف، قد غضب من كثرة مشاهدته

لـ"النصارى" يصولون ويجولون في المنطقة، في كبرياء ووقاحة، فاختبأ لأحدهم وذبحه بخنجره!

أحاط الجند وكبارهم بالمنطقة محاصرين لها بأكملها وكان من الأكيد أن جدي سيقبض عليه فيها. لكنهم فشلوا في العثور عليه وأصحابه. يبدو أن أهل المعاريف قد هربوهم وسط السلع والبهائم حتى قرية برشيد وهنا سلموهم أمتعتهم وأموالهم وتركوهم في الطريق إلى بلدهم. أما القتل فقد لفقه المعاريف لإسباني عرف بتحرشه بزوجة الفرنسي القتيل!

ثم إن هؤلاء الأهل عندما يذكرون محاولات السرقة والنهب، يذكرون المعاريف بكل خير على عكس مناطق أخرى من الدار البيضاء!

هل، يا ترى لكل هذه الأسباب قصدت المعاريف؟

# 15

لم أجد صعوبة تذكر في العثور على "مقهى تبادريست". لقد سماه صاحبه، علي الركجوني، بهذا الاسم إكراما لذكرى أمه التي تزوجها والده من "تبادريست"، جهة "تالوين".

كان الحسين يدور، خفيفا، باسما، ممازحا، بين الزبائن إلى أن وقفت على رأسه فما كاد يشاهدني حتى قال:

– بسم الله الرحمن الرحيم!

وسقط مغشيا عليه!

وبعد الماء البارد، وبعد الليمون، عاد إليه وعيه. نظر إلي طويلا غير مصدق:

– أنت، أنت هنا، كيف؟

اكتفيت بالابتسام طوال ذلك الوقت ثم توجه إليه علي بالكلام:

– هكذا تكرم أبناء بلدك، يا بخيل؟ ليتك مت!

وقال لي:

– دعه، الله يعطيه الموت، تعال، اتبعني!

وأشار إلى كرسي وطاولة فجلست. جاءني بعصير برتقال بارد أعاد إليّ بعضا من نفسي ثم ملأ الطاولة أكلا: حليب ساخن، حرشة، ملوي، زبدة وعسل، أملو وهو يحثني على الأكل:

– كُلْ، كُلْ، وجهك أصفر، الله يستر، كل، آه على صفرة!

كان "أكمى" يتحرك داخل الزوادة بمجرد ما دخلت إلى المقهى لكني تجاهلته:

– يا ربي، ما ينبح!

تمنيت في نفسي وأنا خائف فقد كتب على الركن الأيمن من أعلى مدخل المقهى:

– ممنوع على الكلاب والسكارى!

مازال "علي" يحثني على الأكل ويسأل:

– كل، منذ متى لم تأكل؟

والزبناء يتفرجون على هيئتي. كنت أعرف أن منظري مقزز بسبب

كثرة الوسخ ورائحته وبسبب إقبالي الكبير، بنهم وعنف، على الأكل ولكني منذ وضع كل ذلك الأكل أمامي لم يعد يهمني أحد. كان قلبي، وعقلي، كل جسدي في الطعام ولو حدث زلزال، أو فيضان، ما كنت أقدر على ترك هذا الأكل كله: الجوع أخو الموت!

بالكاد سمعت الحسين يسألني، وقد بدأت أشبع:

– ماذا جئت تفعل هنا، و لم كل هذه البهدلة البادية عليك؟

رفعت بصري نحوه ولكني لم أقل شيئا:

– ماذا لو رفعوا هذا الأكل من أمامي، إذا تكلمت، ظنا منهم أني قد شبعت؟

كرر الحسين سؤاله مرات عديدة لكن فمي لم يكن قادرا على أن ينفتح على شيء آخر غير الأكل فتدخل "علي":

– سر لشغلك، ألا ترى أنه مازال جائعا، سر!

انصرف الحسين ثم تبعه علي. آنئذ تذكرت "أكمى" الذي كان لا يزال يتحرك خفيفا داخل الزوادة. نظرت من حولي ثم تناولت قطعة من الملوي، طليتها بالعسل والزبدة، أدخلتها في الزوادة قبل أن أغلقها بإحكام من جديد وقلت هامسا للكلب:

– كل، كل واسكت، حذار أن تطلب المزيد!

وعاد الحسين حاملا بين يديه فوطة وبعض الملابس النظيفة:

– قم واتبعني، لا تنس جرابك!

كنت أشعر بحاجة جامحة إلى النوم لكني قمت وتبعته. خرج من الباب الخلفي للمقهى وأنا أتبعه. نزل إلى مخزن. تبعته. شممت رائحة فضلات بشرية. قلت له:

– حرام عليك، أبعد هذه الوليمة تنزلني إلى مرحاض عفن؟

قال آمرا:

– ألا تشم رائحتك أنت؟اسمع، تدخل إلى المرحاض وتغتسل. هناك صابون وحلفاء، اغتسل جيدا. هالفوطة وهذه ملابس نظيفة تغير بها ملابسك القذرة. اغتسل جيدا وإذا احتجت إلي تناديني بأعلى صوتك فأكون عندك قبل أن يرتد إليك طرفك.

وأنا في المرحاض – الحمام تذكرت الباسينة النحاسية الواسعة، اللامعة، الكثيرة الطنين التي كانت تضعني فيها أمي لتنظفني وهي تغني، أو تحكي، أو تمزح، أو تلعب بأسفلي:

– آه، يا رب، كيف رميت من الجنة إلى الجحيم: من حضن أمي إلى القيد والوسخ، أخ، أخ!

ولكني بمجرد ما بدأت أصب الماء البارد، النقي، المنعش على جسدي أحسست بنوع من السرور:

– الحمد لله، على كل حال، كنت سأموت في الكتَّاب، أتعفن حتى المخيخ!

وزدت وقلت لنفسي:

– لو بقيت أمي حية لتزوجها اليوسين، نجت وارتاحت المسكينة!

وفكرت في أختي التي كانت لا تزال فرخة صغيرة بلا ريش:

– الموت رحمة، نعمة، أحيانا كثيرة!

ومع ذلك كنت أشعر بشيء من البهجة لأني لم أمت، لأني هربت:

– مرة نجوت من الغرق فقط لأني هربت إلى أعلى شجرة ضخمة وسقطت الشجرة تحت ضغط الفيضان ولكني بقيت متشبثا بأحد فروعها التي انغرست في الطين مستعينة بجذع شجرة أخرى أقوى منها!

لمن كنت أقول هذا الكلام، لمن كنت أحكي؟ لأكمى؟ فتحت زوادتي لأدخله معي وأنظفه فلم أصدق يدي ولا عينيّ: مات أكمى وملأت رائحة موته الجراب فأغلقت الجراب غير مصدق أو كأني أحاول أن أحاصر روحه لكي لا تفارقه، لكي لا يفارقني أكمى، وأنا لا أستطيع أن أراه كاملا بسبب كثرة دموعي؛ أبعث أنا ويموت هو، أكمى صديقي، رفيقي، أخي، أنيسي، الوحيد، من المخلوقات، بعد أمي وأختي، الذي أحبني، قاسمني ألمي، أملي وبؤسي؟ كم حكيت له ما عانيت، ونحن نسير على الشواطيء في اتجاه الشمال، ونحن نعاني من التعب، والجوع، واليأس، ونصل، أخيرا، إلى الدار البيضاء، فيموت ويتركني وحدي؟

– لم تقسو علي الدنيا بهذا الشكل وأنا، أقسم بالله، أني لست من قتل سيدنا عيسى وإنما حلمت، حلمت بذلك فقط وأنا أعاني، في هربي،

ما أعاني من جوع، وعطش، وألم في كل جسمي؟ ثم مالي أنا وسيدنا عيسى، هو نصراني وأنا مسلم، ولكم أحببت أمه وتعاطفت معها وأنا أتعلم خبرهما من القرآن؟

كان الحسين قد عاد من المقهى يتفقدني في القبو:

– مالك، مالك تبكي الله يستر؟

لم أشأ أن أخبره بموت أكمى خشية أن يسخر مني أو يخرجه من الزوادة ليرميه مع القمامة:

– تذكرت أمي وأختي!

رد حزينا:

– من أجل هذا ستبكي وتنوح كثيرا قبل أن تقنعك الدنيا بأن الحي أبقى من الميت، أن من مات نجا أو استراح، فتنسى!

قلت:

– لا أستطيع أن أنسى أمي وأختي!

أمسك بي من كتفي شبه غاضب:

– استدر، در أنظف لك ظهرك!

خيل إلي أنها لم تكن سوى حيلة ليخفي دموعه عني فاسترسلت في بكائي وأنا أحاول أن أخفي عنه ريالي المثقوب!

# 16

علي الركجوني!

كان زبناؤه ينادون عليه بالروزوني، نسبة إلى ذلك النبيذ الوردي، الذي يقال بأنه يدمن عليه بعيدا عن أعين الناس، ولأن خداه الصغيران متوردان دائما، يكاد ينضح منهما الدم، أو النبيذ الروزي. رجل لم يبق على رأسه أثر للشعر. وجهه، الحليق بانتظام ودقة، مدور كعينيه الصغيرتين، الحادتين، اللتين تدوران في موقعهما دون انقطاع. قصير القامة، نحيف جدا، لكنه بارز الصدر، وعضلاته قوية، مفتولة، يلبس ما يظهرها.

رجل تجاوز الخمسين لكنه خفيف الحركة، والظل، نشيط، لا يتعب من العمل والكلام، مسرور، وربما سعيد بالفعل لأنه ناجح في عمله ولا يزال في أتم صحته. وعلى عكسي، أنا والحسين، لم يضطر إلى الهجرة. لقد

أرسل، صحبة خال له، إلى الدار البيضاء، ليتعلم الحياة الجديدة ويكتشف عالما آخر لم يكن يوجد، بنفس الكثافة والوتيرة، في مدينة أخرى غير الدار البيضاء، كازابلانكا، التي اكتشفها خاله وعاش فيها حتى موته.

اشتغل الرجل عشر سنوات، ليل نهارا، مارس كل المهن، ليشتري مقهى "تبادريست" ثم أرسل في طلب أمه وأبيه ليعيشا معه لكنهما قضيا في الطريق من فرط المجاعة والحرارة. وكان له أخوان انخرطا في خدمة الجيش الفرنسي و لم يعد يسمع لهما خبر:

– الغالب أنهما لقيا حتفهما في ألمانيا أو في فرنسا، يقول ليقنع نفسه بأنه لا يملك ما يفعله من أجلهما، أو أن لا جدوى من انتظار عودتهما!

ولقد تزوج الركجوني من ابنة خاله، الذي جاء به إلى كازا، أي كازابلانكا، زواج لم يدم أكثر من شهرين: كانت البنت تنام جنبه وهي تهذي برجل آخر اسمه "جاك"، فحكى ذلك لخاله الذي طلقها منه على الفور وطردها من البيت!

أضرب علي الركجوني عن الزواج والخلفة:

– لماذا ننجب أولادا في هذا الوقت، لنهديهم إلى الموت أو الخوف؟ أمي رزقت بسبع بنات وخمسة ذكور. لم تبلغ أية واحدة من البنات سن الرشد. كن يمتن من المرض والجوع أو شدة الحرارة. و لم ينج من إخوتي الخمسة غيري لأنني، ربما، جئت إلى كازا، أما اللذان أصبحا من مرتزقة الحرب فلم يعودا، هلكا، في الغالب، دون شاهدة ولا شهادة!

يعيش الركجوني وحده في شقة فسيحة بحي المعاريف:

– كل جيراني من النصارى، جاءت بهم روح الطمع والمغامرة إلى المغرب، ولكنهم يحبون الحياة، تستطيع أن تعيش معهم دون عقد، خاصة النساء منهم!

والظاهر أنه لم يعد وحيدا فقط وإنما أصبح غريبا كذلك لأن لا أحد من عائلته يزوره: أتراهم ماتوا، أو اختفوا، جميعا، وهل يا ترى لهذا السبب يعاملنا كأبناء له، يعوض بنا؟

# 17

كان الحسين يقتسم غرفته مع يافع، في مثل سنه، يسمى سعيد، سعيد القفل الذي هاجر، صحبة أمه، إلى الدار البيضاء، من جهة ما في تادلة، ولكن أمه أضاعته، أو تخلت عنه، لا يدري، فبقي تائها في أزقة المدينة إلى أن انتهى به المطاف إلى أن يعمل في شركة صغيرة لإنتاج الخمور تديرها سيدة تسمى مدام ماري:

– تخلت عنه، تخلصت منه، وتفرغت لأقدم، وأحقر، مهنة تمارسها امرأة، همس لي الحسين حين دخل سعيد إلى الحمام وهو عائد من عمله، وقبل أن يدخل إلى البيت!

أردت أن أسأله:

– ما هي أقدم مهنة وأحقرها بالنسبة لامرأة؟

غير أنه تابع:

– وهناك من رآها، أو زارها، في مكان معروف، هنا بالدار البيضاء، ولكن لا أحد يجرؤ على إخباره، فلا تخبره بما أقول لك!

لذلك تخليت عن سؤالي وأنا أقول لنفسي:

– مهنة تربية الصغار، وما عساها تكون غير هذا؟

وعاد سعيد من المرحاض فقدمنا الحسين:

– هذا محمد، ولد لبلاد،... وهذا سعيد، صاحبي اللعين!

سأله سعيد:

– محمد حافية، هكذا، دون لقب أو كنيّة؟

ردّ سعيد:

– لنسمه محمد الحافية، ولكنه سينتهي، مثلي، إلى أن يناديه العروبية، مثلك، بالشلح!

ابتسمت محرجا وأنا أمد يدي إلى سعيد فاستمر الحسين في تقديم سعيد:

– سعيد فاسق وزنديق منذ صغره، وهو في الحقيقة لا يتذكر صغره، لا يذكر أنه كان طفلا في يوم من الأيام...

اعترض سعيد:

– كذبت، والله أنت تكذب على أخيك الشلح، فأنا أذكر جيدا يوم فطامي: لقد حلقوا رأسي و لم يتركوا لي من شعري الكثيف سوى عرف، كعرف الديك، وعلقوا في عنقي خبزة مثقوبة من الوسط مع زجاجة شاي باردا!

تذكرت ريالي المثقوب فتفقدته في المكان الذي علقته فيه: لا يزال في مكانه!

تابع سعيد:

– ومنعت عني أمي ثدييها من ذلك اليوم!

سألني الحسين:

– هل تعرف لماذا فعلت أمه هذا؟

لم أفهم قصده ولكني أجبت:

– لا، لا أعرف!

أجاب الحسين:

– لأن أسنانه نبتت قوية قبل الأوان ففعلت معه أمه ما تفعله الكلبة مع جرائها عندما تنبت لها أسنان!

عاتبه سعيد:

– عيب، عيب عليك أن تشبه أمي بالكلبة في كل حين!

سأله الحسين غير مكترث:

– طيب، قل لنا بما عوضت ثدي أمك حينها، قل لمحمد، قل!

ردّ سعيد:

– قل له أنت واتركني وشأني!

أضاف الحسين:

– صار يرضع من أثداء الحيوانات مع صغارها كأنه واحد منها، لا يميز بين بقرة ولا شاة ولا أتان، يرضع أينما وجد حليب!

وقف سعيد مستعطفا الحسين:

– العار، لا تحك قصتي مع زوجة الفقيه، العار، هذيك والتوبة!

تابع الحسين بخبث واضح:

– كان الفقيه الجبلي معلما في كتّاب القرية، قرية سعيد، وكانت له زوجة سمينة، عريضة وطويلة، تدخل باب بيتها، أو تخرج منه، دائما جانبيا. ومع ذلك تجد صعوبة بالغة في الدخول والخروج، فلما رآها سعيد، وكان قد بدأ يستقيم في مشيته، ظن أن ذلك الاكتناز من كثرة الحليب في تلك المرأة، فاستعطفها أن ترضعه فقبلت المرأة ضاحكة وأدخلته معها إلى بيتها ثم تعرت واستلقت على ظهرها ووضعته فوق بطنها فشرع السي سعيد يمص أحد ثدييها من غير أن يعلم أن تلك المرأة عاقر وأن ثدييها جافان...

تدخل سعيد:

– لا تحرف الواقعة، والله، أسيدي، حتى كان في ثدييها حليب!

استمر الحسين في الحكي:

– ما علينا، ليس هذا أهم ما في هذه الواقعة، المهم أن الفقيه دخل إلى بيته فوجد السي سعيد راكبا بطن زوجته فحبسهما معا مدة أسبوع بلا ماء ولا طعام ظانا أنهما كان يزنيان...

سألت بسذاجة:

– وظل سعيد راكبا صدر المرأة كل تلك المدة؟

انفجر الحسين ضاحكا:

– يا بني، قلنا بطنها، بطنها، لا صدرها!

وخجلت من أن أستمر في السؤال عن مدة الركوب تلك لكني تذكرت نفسي على الفور محبوسا في الكتَّاب وتمنيت لو فعلت ما فعل سعيد مع زوجة فقيهه قبل أن تستعيد ذاكرتي أن فقيهي كان أعزب، يحب زوجات الآخرين وغلمانهم، لعنة الله عليه!

سأفهم فيما بعد أن عناصر حكايات مثل هذه، سواء رواها الحسين عن سعيد، أو سعيد عن الحسين، أغلبها محض اختلاق، ففي واقعة زوجة الفقيه، مثلا، أن سعيد طلب بالفعل من المرأة أن ترضعه، ظنا منه أن جسدها كله حليب، ولكن المرأة ردت عليه بضربة على قفاه وهي تسبّه:

– شياطين من صغركم، سر لعنك الله إلى يوم الدين!

وما زال سعيد، إذ كانت هناك مناسبة، يردد:

– مازلت أحس بتلك اللعنة على قفاي كأن جبلا ضربني عليه!

مثل هذه الحكايات كانت تستخرج عندما يشعر الواحد منهما بالضيق، تستعمل لتصريف أزمة، للتخفيف من شدة الوقت وفك قبضته على الخناق فلم يمض علي وقت طويل لإتقان الروايات، أي اختلاق، مثيلاتها!

وعلى كل حال، منذ ذلك اليوم ،صار اسمي "الشلح" !

ولكني استحييت، في البدء، من أن أنادي على سعيد بالاسم الذي كان يناديه به الجميع: الزنديق! أما الحسين فقد كان اسمه الحسين، الحسين فقط، ودائما!

# 18

يقطن الحسين في درب غلف بزقاق ضيق وقصير، قليل النور، تدخله فقط البهائم والدراجات الهوائية، لكنه يتعامد، والبيت في زاوية هذا التعامد، مع زقاق أعرض وأطول تدخله العربات والسيارات.

موقع هذا البيت، الذي سكنت فيه مع الحسين والزنديق، في الطابق الثاني، حيث يوجد على السلم الضيق جدا، والمتآكل جدا، في مقابلة المدخل، مرحاض هو المكان الوحيد الذي فيه حنفية ماء، وهو يستعمل مرحاضا وحماما كذلك:

– ستسكن هنا معنا، يقول الحسين، ولكن تخيل نفسك، وأنت تدخل إلى هذا القصر العظيم، أنك مازلت تعيش في البلد وأن هذا المكان ليس سوى غرفة نومك هناك، أغمض عينيك مثلي، عند وصولك إلى بداية الدرج، ولا تفتحها إلا وأنت داخل الغرفة!

يتكون هذا البيت من غرفتين متقابلتين، يتوسطهما بهو صغير لا يصلح لشيء آخر غير المرور إلى إحدى الغرفتين، مباشرة من المدخل. في الغرفة المقابلة تسكن امرأة يسميها الزنديق"الجنية الكحلة" ويقول عنها:

– إنها لا تعيش سوى في الظلمة، لا تشعل ضوء غرفتها، وتخرج حين ننام ثم تعود قبل أن نستيقظ وتغلق عليها غرفتها فلا يراها أحد، وقد صادفتها، مرة وأنا عائد سكران بينما هي خارجة، صادفتها في أسفل البيت، حيث لا يوجد نور، فلم أتبين شكلها لأنها سوداء البشرة، من جهة، ولأن الظلام كان كثيفا، من جهة أخرى، تلك الليلة.

ذكرني بالجنية الكحلة زوجة عمي وبناتها العفريتات فتساءلت، في باطني، خائفا:

– أتكون بعثت قصدا في هذا المكان لمتابعة إرهابي؟

تابع سعيد:

– قالت لي:

– السلام!

توقف قليلا قبل أن يضيف:

– ولكني لم أرد عليها سلامها لأني كنت أرتعش خوفا منها!

علق الحسين:

– والحقيقة أن سرواله الجميل كان يقطر ماء أصفر لما وصل إلى هذه

الغرفة فظل فاقدا لسانه طيلة ما تبقى من الليل فلم أزعجه لأني اعتقدت أنه شرب زجاجة "اللقوة"، تلك الحالة التي يصاب فيها المرء بالبكم المباغت، من فرط المفاجأة أو الألم أو الخوف أو التلف، وأنهم أصبحوا يسقونها لهم في البارات بدل الخمر!

قال الزنديق وهو يصب لنفسه من زجاجة نبيذ أحمر:

– أنت تقول هذا من باب السخرية والمزاح ولكن هذا ما نطلبه ونحن نشرب!

تظاهر الحسين بالغضب:

– والله العظيم، أسيدنا السكران المدوخ، لأعلم عن الخمر أكثر مما تعرف، أنا رجل حوار، وقد أكد لي أكثر من واحد من زبنائي أنه يشرب للوصول إلى "اللقوة" ولكن لا أحد منهم يستطيع أن يعطيك تعريفا دقيقا لها سوى أنهم يشتركون في القول بأنها حالة من العي، أو الحبسة، التي يصل إليها اللسان عندما تفرط في الشراب ويكون لك منها شيء من البهجة، أو السلوان، أو الشقاء الصامت!

حين دخلت أول مرة إلى هذه الغرفة فوجئت بنظافتها وحسن ترتيبها رغم ضيقها: الأرض مكسوة بحصير من الدوم، عليها سريران متوازيان، مرتبان بعناية، وطاولة صغيرة مستديرة، فوقها إبريق شاي وفناجين أربعة، وكأس واحدة بالقرب من زجاجة نبيذ أحمر رخيص. استغربت لوجود هذه الزجاجة فلما لا حظ الحسين تعلق بصري بها قال:

- أنا لا أشرب الخمر، لأني فقط لا أحب طعمها، ولكن الزنديق لا يأتيه نوم قبل أن يشرب زجاجته كل ليلة!

خفت من الزنديق، وقد كانت رأسي مليئة بالحكايات الغريبة، خاصة الشاذة، عن شاربي الخمر ومنهم، وهو أسوؤهم، بطبيعة الحال، عمي اليوسين. لكني لما راقبت سلوك الزنديق، وهو يشرب الخمر، لم ألحظ عليه أي سلوك غريب. كان يشرب نصف الزجاجة، وهو يمازح الحسين، ثم يتوقف ويتفرغ لإعداد العشاء، بمهارة وسرعة لا تصدق، ثم يضع الأكل على المائدة وهو يقول:

- يا قوم، ألا تأكلون؟

ننقض على الأكل بسرعة ثم يقوم الحسين بتنظيف المائدة وغسل الأواني وإعداد الشاي. يشرب معنا الزنديق الشاي قبل أن يعود إلى زجاجته بينما يشرع الحسين في قراءة الجرائد التي يأتي بها من المقهى مجانا وأبقى أنا عرضة للملل والتفكير في مصير "أكمى". ذلك أن الزنديق يدخل في حالة غريبة مع نفسه: يبدأ في الأول بالتكلم معها على ما جرى له أثناء النهار ثم يعاتبها على ما ارتكبته من أخطاء ثم يهنئها على كل سلوك حسن ثم يمتدحها ثم يغني إلى أن ينام!

هكذا تجري، على العموم، ليالينا في تلك الغرفة، الحسين يقرأ والزنديق يشرب، مع تغيرات حدثت ليلة التحاقي بها وأخرى تخص نظام عيش ثلاثة معا بعد أن لم يكن فيها سوى اثنين. قال لي الزنديق، قبل الدخول في مرحلة الغناء لنفسه، وكان الحسين قد نام:

– تخلص من رائحة الكلب، وهو يشير إلى جرابي، ابدأ بوضع جرابك في المرحاض!

وقادني إلى المرحاض، وسط الظلمة، حيث ساعدني على تعليقه!

وبدون أن يترك لي الوقت الكافي للاستغراب أضاف، ونحن نلج الغرفة من جديد:

– وتعلم القراءة، إذا استطعت، أو شرب الخمر، إذا وجدتها مجانا، لتقتل كل من تحب أو تلقاه وأنت في حالة من "اللقوة"!

اكتفيت بابتسامة صفراء لكني عدت وقلت:

– سأفكر في الأمر!

غير أنه أضاف:

– أو تعلم العزف على آلة موسيقية تسلي نفسك وتسلينا معك!

وشرع في الغناء بصوت لا يكاد يسمع فنظرت إلى الفراش الذي أعد لي الحسين في الركن المتعامد مع السريرين، مباشرة على الأرض، لكني قبل أن ألتحق به أحسست براحة غريبة في كل أنحاء جسدي وبحبسة غريبة في لساني لأني أصبحت عاجزا عجزا تاما عن الكلام فقمت وانتشرت في الفراش إلى أن نمت على صوت الزنديق وهو يشدو، يردد تهويدة، تهويدة عتيقة، من أجلي، ثم يهمس لي بأغاني قديمة كلها حنين: من يتقن مثل هذه الأغاني لا يحتاج إلى أم!

# 19

تفقدت جرابي وكلبي باكرا صباح اليوم التالي. لم أجد لهما أثرا. عدت إلى الغرفة حزينا، غاضبا، وأنا أتساءل:

– أيكون الزنديق أكله وهو في حالة "لقوة"؟

التقيت الزنديق في الممر وهو يحمل فوطة، قلت له:

– اختفى الجراب والكلب!

قال بينما لا أستطيع أن أميز قسمات وجهه لأعرف إن كان مازحا أو جادا، ودون أن يتوقف:

– لابد أن الجنية الكحلة قد أكلتهما!

وفاجأني الحسين من داخل الغرفة:

– لا شك أنها هي من فعل ذلك، الجن يأكلون بني آدم هذه الأيام، فلا تحزن، سآتيك بكلب آخر بدله، يكون أنظف وأجمل، في صحة جيدة!

أضاف الزنديق من داخل المرحاض:

– ويحسن الغناء والرقص!

في تلك اللحظة بالذات، وأنا أكاد أشرق بكاء، أحسست أني سخيف، ساذج، صغير ومغفل: إذا آلمني فقد كلبي إلى هذه الدرجة، كما قالت لي عجوز سيدي عبد الرحمن، فكيف سأتصرف أمام فقدان كل أهلي، ألم نفقد، أنا والحسين والزنديق، أعز من ذلك وأهم؟ ألا يتألم الحسين والسعيد كما أتألم أو أكثر ولكن ها هما يستعدان لعملهما بهمة وبهجة؟

ومع ذلك سيطرت صور "أكمى" على أحلامي لمدة طويلة: كنت أراه يتبعني ويعاني معي من آلام السفر، ينبح علي أو على كل من يشم فيه رائحة لا تعجبه، يسبح، يأكل، يتنفس داخل زوادتي، يؤازرني صامتا في محنتي، أي مخلوق يستطيع أن يفعل هذا كله معك، من أجلك، يقرر بهذا الشكل العفوي، ودون سابق معرفة، أن يصاحبك ويحبك؟ أحيانا كنت أفكر أن أختي، أو أمي، هي التي بعثت إلي بهذا الكليب، من هناك، من السماء:

– عندما أعثر على الذي أكل كلبي سآكله بدوري، حيا، وحق ربي، قلت للزنديق!

ولكنه اكتفى بحركات اشمئزاز و لم يرد على تهديدي له. والحقيقة أني لم أكن أشك فيه كثيرا. كان أغلب شكي في اتجاه " الجنية الكحلة"، التي

يدل كل ما رواه عنها الحسين وسعيد أنها تشبه زوجة عمي السفاحة، آكلة الأطفال، الرضع، وقد زدت في تغذية هذا الشك بتذكر كل ما يفعله الناس من أجل الجن ليجلب لهم الخير أو يصيب أعداءهم بالشر أو فقط ليتجنبوا ضره لهم: ذبائح من الماشية السوداء، من الدجاج الأحمر، من البشر، خاصة الأطفال الذين يتوفرون على علامات معينة، وإقامة الليالي تكريما وإكراما للجن، وتزويجهم من بناتهم أو نسائهم... قرابين وطقوس وتمائم لا تعد ولا تحصى فلم لا تأكل "الجنية الكحلة" كلبي بعد أن علقناه لها، وأين؟ في المرحاض، المكان المفضل لدى الجن!

ما كرهت مخلوقا كما كرهت هذه الجنية ولكني ما خفت من كائن كما خفت منها وبمجرد وصولي إلى مدخل البيت يشرع جسدي في الارتعاش، يقشعر جلدي وأحس بمئات الدمامل، في حجم الحصى، تغزو كل مكان فيه بالرغم من أني حرست على ألا أدخل إلى هذا البيت، أو أغادره، إلا صحبة الحسين. وقد وصل بي الأمر إلى أن أسمعها، وهي تمضغ عظام "أكمى"، تتلذذ بلحمه وعظامه محدثة صوتا رهيبا، وأنا أعبر الممر الفاصل بين غرفتها وغرفتنا، حتى قلت للحسين مرة:

– اسمع إنها مازالت تمضغ عظام كلبي!

قال الحسين، ونحن لا نزال في الظلام:

– فيل هذا الكلب عندك، ولو كان غول!

وأضاء الغرفة فدخلنا من غير أن نتبادل كلمة واحدة حتى جاء الزنديق.

دخل وهو يبتسم. سبقه الحسين:

– خير، إن شاء اللـه، خير وسلام!

نظر إلي الزنديق بما يشبه الحياد:

– كلبك، كلبك رجع للبلاد، فاق من الموت ورجع للبلاد!

تدخل الحسين:

– من أخبرك بهذا؟

أجاب الزنديق وهو لا يزال ينظر إليّ:

– أفراد من قبيلة المعارف، شاهدوا كلبا صغيرا، قرب مديونة، يجري في اتجاه سوس!

لم أصدقه ولكن الحسين أضاف:

– وأنا أيضا سمعت خبرا كهذا عن كليب يشبه كلب الشلح ولكني لم أصدق!

تابع الزنديق:

– ولقد تطيروا منه وجروا خلفه لكنهم لم يقدروا على الإمساك به، يجري بسرعة تقارب سرعة البرق، وقالوا إنه أذكى من بني آدم!

لم أشعر إلا وأنا أقول:

– هو، هو "أكمى"!

تبادلا ابتسامة خفيفة. ونمت تلك الليلة، لأول مرة في الدار البيضاء، نوما هادئا لم تفسده صور الكليب: كان كلبي حرا، سعيدا، معافى، في البلدة!

و لم تعد "الجنية الكحلة" سوداء. لقد أصبحت قمحية، ذهبية اللون لأني لم أكن قد اكتشفت بعد أن ذلك الخبر محض اختلاق لجعلي أنسى "أكمى"!

# 20

قال لي علي الركجوني صاحب المقهى:

– من حسن حظك أن الولد المكلف بالنظافة قد اختفى منذ أكثر من شهر حتى أني يئست من البحث عن مكلف بهذا الأمر، يأتون إليك صاغرين، متسولين العمل ثم ينصرفون ساخطين، لاعنين، عندما يجدون من يزيد عليك سنتيما صغيرا في أجرهم، يتعلمون منك الحرفة ثم يهربون، بلا كلمة "معذرة" أو "شكر"!

لم أفهم معنى ذلك في البداية:

– النظافة حرفة في هذا البلد!

لكنه تابع:

– المعلم لازم يبدأ من أسفل السلم ثم يتدرج فيه إلى أعلاه، يتعلم أسرار

المهنة كاملة بالعمل، مثل بقية العمال، يدخر شيئا من أجره، ثم يتسلح بالإرادة والهمة ويتوكل على الله ليفتح محله الخاص بما ادخره، لا أحد يبدأ كبيرا، ولا أحد ينجح في مهنة لا يعلم أسرارها!

ظننت أنه يستغفلني:

– أنا معلم، كيف، ومتى؟ يوم القيامة؟

ولا شك أنه لم يدرك هذا فأضاف:

– أنت منذ هذا اليوم المكلف بالنظافة في هذا المحل مقابل أجر محترم وأكلك مجانا جزء من هذا الأجر!

– عجائب المدينة، حتى النظافة عندهم حرفة تدر عليك "دخلا محترما"، كل شيء يباع أو يشترى، لا أحد يفعل شيئا لوجه الله كأن هذه المدينة لا تعرف معنى الخير، رددت في سري!

قلت ذلك لنفسي قبل أن أكتشف أن النظافة من أشق المهن، أنها ربما تحتاج إلى أجر عالٍ، وقبل أن أدرك سر ضحك الحسين والزنديق وهما يستمعان إلي أسخر من المدينة وعاداتها الغريبة: تأتي في الصباح الباكر، قبل كل الباقين، فتنظف الأرض، والطاولات، والكراسي، وتقضي النهار كله في غسل مختلف الأواني، وتكون آخر من يغادر، ليلا، لأنك ينبغي أن تجمع كل البقايا، وعندما تتوقف حركة المكنسة أو صوت الأواني ينادون عليك لتساعد في أمور أخرى: منظف وغسّال، ومساعد في كل شيء، والمسئول عن أمن كل المفاتيح الخاصة بالمحل، من الأبواب إلى الخزنة، فمن يقول إنها ليست مهنة؟

قالوا لي إنها حرفة تسمح لصاحبها بالغناء وهو يشتغل وأنا أقول لهم إن صاحبها يبكي، وهو يغني، يحارب أخبث أعداء البشر: الملل والروتين!

ومع ذلك فقد كانت لهذه الحرفة، وفي هذا المحل بالذات، بعض المتع، خاصة في أول الليل ومنتصف النهار حين يتوافد عليك "النصارى" مع نسائهم، وبناتهم، لتناول اللحم المشوي والبطاطا المقلية. كنا أشهر مكان لبيع البروشيت مع الفريت، في المعاريف، وربما في الدار البيضاء كلها. بمجرد مقدم هؤلاء القوم ينشر في المحل كله روائح الثياب النظيفة، روائح الجلد الناعم، روائح العطور الزكية. يلتفون حول الطاولات الصغيرة كالزهور مالئين مقدمة المقهى بالضحك والجمال، يا ربي، كم كنت أسعد، أنا المنظف، بكل هذا السحر الفتّاك، قبل أن يدخل الحسين في رأسي أفكاره حول الاستعمار والاستغلال!

ولكن سعادتي كانت أكبر وأنا أطل من الضواية التي تفتح القبو، حيث أشتغل أغلب الوقت، على مقدمة المقهى، حيث ينتشر أولئك الناس. كنت أراهم مقلوبين ولكني كنت أرى العجب!

وكانت تكتمل سعادتي عندما يكثر الطلب على زملائي فيستنجدون بي لمساعدتهم وأكثر ما كنت أساعدهم فيه أن أذهب إلى الحانة المقابلة للمقهى، بطلب من أولئك "النصارى"، وأعود محملا بقناني البيرة والنبيذ، وحدي، أو صحبة النادل المكلف بذلك في الحانة. يشكرونني، ويضحكون في وجهي، ويعطونني بعض النقود، يمتدحوني: يفرحون بي إذن!

وحين صرت مشهورا عندهم، بجدي وخفتي، صاروا لا يطلبون هذه الخدمة إلا مني فتسمعهم ينادون:

– فين الشله؟

أي الشلح!

أو:

– جب لي الشله، قل له يجي الآن!

أو:

– أجي، الشله، أجي!

أو:

– مرسي، الشله!

أصبحت عندهم الشله بدل الشلح، ماعليهش: أجمل، منطوقة بلغة أجنبية!

حفظت تلك الكلمات وغيرها من الجمل والكلمات حتى تعلمت الفرنسية وبرعت في عبارات المجاملة والتحية والثناء:

– تبارك الله على مدام... مسيو ناشط اليوم... مرسي مدموزيل، فستانك يجنن وشعرك يجلب الريح الزينة، وافقك هذا اللون... ها البيرة باردة... الجو سخن!

الله على أيام زينة: أيام الفرح والبراءة!

# 21

هكذا صارت حياتي: العمل متأخرا في الليل بالمقهى، والمجيء إليها قبل الآخرين مبكرا في الصباح. لا أرى العالم إلا من ثلاث فتحات: فتحة المقهى التي تربطني بالنصارى وبقية الزبناء، فتحة البار التي أحضر منها طلبات الخمر للنصارى وأشاهد منها الشاربين، بداخل الحانة، وهم يملؤونها لغطا، وفتحة البيت التي حين أخرج منها أرى الناس يدبون ويسعون مثلي.

لم تستجد سوى أشياء أربعة:

أولا، لقد تعلمت القراءة والكتابة باللغتين العربية والفرنسية، وصرت أقرأ وأستوعب أحسن من الحسين، كما أتقنت الحساب واكتسبت بعض المهارة في العزف على الكمان. كنت قد حصلت على رخصة من صاحب

المقهى، أغادر مكاني إلى جمعية مسيحية، على الساعة الثامنة مساءا، وأعود إليه حوالي العاشرة، لأنجز ما يتبقى على ذمتي من عمل هناك. كان المسيحيون المشرفون على الجمعية خليطا من العرب والفرنسيين، يعلّمونا القراءة والكتابة والحساب، باللغتين، نصف ساعة لكل مادة، ويخصصون النصف الباقي لتعليمنا الموسيقى الغربية. أردت في البداية، بعد أن أنهينا تعلم الصولفيج، أن أتمرن على آلة العود ولكني وجدت الكمان يبكي، ويئن، ويفرح أكثر من العود فتمرنت عليه!

كانوا، مسائيّ الخميس والسبت، يلقنونا شيئا من المسيحية، ولكن هذه الدروس كانت تدخل إلى رأسي من جهة وتخرج منه من الجهة الأخرى، كانت تحتفظ بها ذاكرتي بشكل قوي، لكي لا أخسر الامتحان فيها، ولكنها لم تصل إلى قلبي أو عقلي، بل كنت أستغلها لتقوية فرنسيتي إذ بدأت أحفظ جملا جميلة، راقية منها، جملا نموذجية، بالفرنسية، وأستعين بها على اكتساب مزيد من المهارة اللغوية حتى أني صرت الأول دائما في امتحانات اللغة ثم إن الزبائن من الفرنسيين، لما لاحظوا تطور مستواي اللغوي، وعرفوا أني أتردد على تلك الجمعية، أصبحوا يمدُّوني بالكثير من الكتب والجرائد والمجلات البالية: الحسين نفسه أصبح يقترض مني المطبوعات!

لقد ترددت على هذه الجمعية حتى بلغت العشرين من عمري، أي طيلة أكثر من عشر سنوات. والحقيقة أني تعلمت بها أشياء كثيرة أخرى مثل أدب المعاشرة، أدب الأكل، أدب الشارع... إلخ، فلا غرابة، والحال هذه، أن يكون كل هذا قد ساعد على أن تقع إحدى الفرنسيات في غرامي!

# 22

كانت كاترين تكبرني قليلا، في حوالي الخامسة والعشرين من عمرها، وأنا لم أتجاوز بعد العشرين. كانت كاترين هذه معلمة بمرس السلطان ولكن تقطن في المعاريف وتأتي إلى مقهى تبادريست مرتين في الأسبوع: الإثنين والخميس، تأتي دائما وحدها غير أن الكثير من العائلات تدعوها للجلوس معها فتختار كاترين مع من تجلس ثم تنخرط بسرعة في روح الجماعة. كاترين قصيرة القامة، ولكن اكتناز الصدر والعجزة متناسب مع هذا القصر، قصيرة الشعر، ولكن الشعر كثيف وناعم، قصيرة الساقين ولكن امتلاءهما يساير امتلاء الصدر والعجزة، إن هناك تناسبا ساحرا يتحكم في كل هذا القصر، فتنة طاغية في هذا القصر ينطق بها لسانها العذب وهالة الضوء الخفيف التي تحيط بالوجه الصغير. سأسميها "بطتي" وستعجبها كثيرا هذه التسمية. هي المرأة الوحيدة التي أراها كاملة من

فتحة القبو بالرغم من أني أراها، كالباقين، مقلوبة. هي الوحيدة التي لم تكن ترفع بصرها عني قبل أن أنهي خدمتها ولا تكف عن النظر إليّ كلما مررت بالقرب منها إلى درجة أن إحداهن قالت لها على مسمعي:

– قولي له، قولي للشله وارتاحي!

وسمعت ذلك فسألتها:

– حاضر مدام...أية خدمة مادموازيل؟

ابتسمت المرأة واحمر وجه كاترين:

– لا، شكرا، فيما بعد، ردت بطتي!

ثم جاءتني، بعد ذلك، بكتاب صغير له عنوان غريب: " البيان الشيوعي"!

قالت لي بلطف ساحر:

– ستفهم كل شيء فيه بسهولة وإذا أشكل عليك أمر منه أنا هنا لأساعدك!

وقال لي الحسين لما رأى الكتاب بين يدي:

– اخفه، اخفِ هذا الكتاب عن عيون الناس!

سألته مستغربا:

– لماذا، لماذا أخفيه، إن كاترين هي من أعطاني هذا الكتاب!

جرني بعنف نحو ركن من المقهى:

– الشيوعية حرام، ضد الإسلام، يا حمار!

ماذا قال هذا المجرم؟

– أنا ضد الإسلام، مثل عمي يوسين، ديني ودين أمي وأبي؟

نزلت إلى القبو لأخفي الكتاب ولكن فضولا كبيرا ركبني ففتحت صفحته الأولى التي وجدت فيها تلك المفاجأة التي ستكون أول رابط للعلاقة بيني وبين كاترين:

"العزيز جدا محمد

ليس من الضروري أن تقرأ هذا الكتاب

لقد استعملته فقط لأقول لك إني أحبك

إذا كنت تحس بشيء مثل هذا تجاهي أرجو أن تعيد إليّ الكتاب مع إضافة عبارة:

وأنا كذلك!

وألا تضيف شيئا آخر غير هذه العبارة!

كاترين"

وكتبت تحت اسمها على الفور كأني خارج وعيي:

"وأنا كذلك !"

ثم وقعت:

"محمد الشلح"

بعد ذلك بحوالي شهر كنت واقفا على رأس صاحب المقهى:

– إما تعطيني عطلة يوم الأحد وإما أغادر المقهى!

بدا الرجل حائرا فأنا لم يكن لي أي يوم عطلة طوال كل هذه المدة التي اشتغلت فيها عنده: أكثر من عشر سنوات لم آخذ فيها يوما واحدا للعطلة!

لقد أصبحت في حاجة إلى هذا اليوم لأنه يوم العطلة الأسبوعية لكاترين، لأكون كل اليوم صحبة كاترين: انتبهت أخيرا، بفضل كاترين، أن لي جسدا، فليفرح الصبي أو ليمت غيضا!

ورغم أن ريالي المثقوب، الذي يظل في مكانه ليلا ونهارا، كان يزعج كاترين فإني لم أتخلص منه، رغم إلحاحها، في أي وقت من الأوقات، قلت لها:

– إنه تميمة لتقوية الطاقة الجنسية!

لم تصدق في البداية ولكنها ما لبثت أن صدقت قبل أن تكثر ريالاتي!

# 23

واه، واه، على أيام كاترين، زمن كاترين، زمن المتعة والزين، زمن إعادة تربيتي، زمن..

لم أكن أمارس الجنس إلا كما يمارسه الحيوان، كنت أشبه الديك، أشبه كل الرجال الذين يركبون وينزلون كأنهم يسرقون، ينتهون منه كأنهم هاربون، وقد يندمون، بعد النزول، ولكن الجنس مع كاترين يسبقه إعداد كبير، تمهل وتأجيل، وينتهي باستمتاع أكبر، وأعظم ما فيه أن المرأة تشاركك فيه المتعة ولا تكتفي بأن تفرج لك ما بين ساقيها وهي تفكر في المطبخ، أو الولد الذي يبكي، أو وهي تمضغ العلك، تلوك الألم، أو تحلم مثل أول وآخر زوجة لعلي الركجوني!

- أعظم شيء في الجنس تحس به عندما تطيل التمتع به، تتركه يجري

في جسدك كله، تشعر به في كل ذرة منه، في كل مسام جلدك، أطول وقت ممكن، قبل أن تجمعه وترسله ليستكمل به الآخر متعته، الجنس يشبه الأكل، بالنسبة لمن يعرف كيف يستمتع بالأكل، يأخذ كل وقته، يتلذذ بكل لقمة، يمتع كل حواسه بالطعام، ولا يفرغه في جوفه دفعة واحدة كمن يلتهم السم، تشرح لي كاترين وتعيد، تذكرا!

لم يكن هذا السرور الكبير يتوقف عند الجماع، كان حاضرا في كل شيء: ونحن نسبح، أو نلعب، في البحر، ونحن في السينما، ونحن نهيىء الطعام معا، ونحن نستمع إلى الموسيقى...كان "الويك إند" عندي يوم عيد، عيد عظيم!

لم تكن كاترين تضيع من هذا اليوم دقيقة واحدة، كل الوقت كان للاستمتاع، للفرح والبهجة، بأقصى، بأقوى ما تستطيع: الله عليك، ياكاترين، كاترين الحية، كاترين المطمئنة، العاشقة، المستسلمة للعطاء والرغبة، الله، الله، على الزمن الهروب، المتقلب، الخئون!

كنّا عاشقين، طفلين، نمرح ونلهو، في كل مكان، كل الوقت، تعرفنا شقتها الصغيرة، خاصة المطبخ والسرير، حيث كنا نمضي أغلب الوقت حين نكون في بيتها. تعرفنا مياه بحر عين الذياب التي كان لها معنا موعد كل صباح أحد، نعوم أو نلعب، أو فقط نتفرج على حركة البحر، والناس، ونحن ملتصقان. تعرفنا حديقة ليوتي، عقودا قبل أن تصبح حديقة الجامعة العربية، تعرفنا قاعات السينما، تعرفنا أمّ كلثوم، شخصيا، لأني بكيت لما شاهدت، صحبة كاترين، فيلمها "وداد"، في سينما "ريجان"، ويعرفنا

شارلي شابلن، الذي أدمنا عليه في سينما "فوكس"... يعرفنا المسرح البلدي، سنوات قبل أن يهدم، الذي شاهدنا فيه العديد من المسرحيات وحضرنا الكثير من الحفلات... يعرفنا الليل والنهار... يعرفنا ترامواي الدار البيضاء!

كيف أعد كل ما تعلمته من كاترين، ما تعلمته صحبة كاترين: الجنس، السينما، المسرح، الموسيقى، القراءة، آداب المعاشرة و... الحياة؟

الأكيد أن علاقتي بها قد غيرت رؤيتي إلى الحياة وكيفية الاستمتاع بها: يقولون إن علاقة كهذه هي التي غيرت تصور علي الركجوني للدنيا، علاقة مع يهودية، "عقّدته"، صعّبت علاقاته مع المسلمات، فلم يتزوج بعد تجربته اليتيمة، الخائبة، في الزواج!

مسكين لمعلم علي: أين يمكن أن يجد امرأة أخرى كاليهودية؟ وأنا... هل أستطيع تجاوز قيود هذا الارتباط في يوم من الأيام؟

كان يحادث فرنسية، جالسة وحدها، وقت العشاء. اشتكت له من غدر رجل وأضافت:

– هناك من الرجال من يطبع امرأة طول حياته ويستحيل أن تتخلص، بعد ذلك، من دمه الذي يكون قد اختلط بدمها!

علق الركجوني:

– ومن النساء، غير العاديات أو العابرات، من تسكن الرجل كالجنية، تقتله أو تحييه، ولكنها، في الحالتين، تعقده، تعميه، ثم تنصرف وتتركه،

تختفي وتظل مع ذلك ساكنة فيه!

قلت في سري، وأنا أسترق السمع من فتحة القبو:

– صورة كاترين، في ذاتي، على هذا الشكل وعلى غير هذا الشكل!

وأنهت المرأة طعامها فقام الركجوني ومشى معها. تصورت أنهما يعزيان بعضهما في سرير. لكنه عاد بعد قليل. جلس إلى نفس الطاولة التي كانت المرأة تتناول عليها طعامها. قال:

– ما أبشع وحدة امرأة طبعها رجل وهرب!

قلت:

– وما أفظع وحدة رجل طبعته امرأة ثم شرعت تلهو به!

كان قد سمعني على ما يبدو لأنه نظر إلى الفتحة فرآني:

– ماذا تقول، يا شلح؟

أجبت:

– سمعت بالصدفة ما دار بينك وتلك المرأة من حديث.

قال غاضبا:

– مازلت صغيرا على مثل هذه الأمور، فلا تشغل بالك بها، إنها مثل السم اللذيذ، تلتهمه وأنت تستمتع، وستأكل منه الكثير فلا تستعجل، شف شغلك، سر تخدم، اخدم!

استجبت لأمره:

– حاضر، ألمعلم، حاضر!

ولكنني قلت في سري:

– لا ينفع في هذا الأمر صغر ولا كبر!

خمنت أن الركجوني قد أدركه ذلك على كبر فأضفت لنفسي:

– ومع ذلك ما أصعب أن ينال منك على كبر!

# 24

ثاني الأشياء التي استجدت: رؤيتي، لأول مرة، رؤية العين، للجنية الكحلة. رجعت إلى البيت متأخرا، كالعادة كل ليلة، وفوجئت بضوء خفيف ينبعث من باب غرفتها فلما اقتربت أكثر، داخل الممر، أبصرت وجها صغيرا ينظر إلي بعينين شاحبتين: صورة غير الصورة التي رسمت في خيالي!

كانت " الكحلة" بيضاء، ناصعة البياض، رغم ذلك الشحوب، بياض يدوخ، نحيفة، بدون سقم واضح، داخل البيجامة الوردية، يتدلى شعرها طويلا، منسابا على صدرها، وفمها الخاتم لا يكف عن الابتسام، ابتسامة لا تخلو من ذبول ولكنها تجذب، ويداها طويلتان، واحدة تداعب الشعر والأخرى تمسك بالسرة: إنها جنية إذن ولكنها جنية بيضاء!

همست لي في الوقت الذي هربت بصري منها في اتّجاه باب الغرفة:

- أحتاج إلى مساعدتك!

قلت لنفسي مرتعشا:

- هاه، ها لعبة الجن قد بدأت!

كررت همسها:

- هل يمكنك مساعدتي، رجاء؟

تذكرت أن الإنس لا ينبغي أن يعصي أمرا للجن وإلا مُسخ فورا:

- حاضر، إذا استطعت!

لا أدري كيف تماسكت ونطقت تلك العبارة بكل هدوء:

- إذن تعال، ادخل!

لماذا تهمس دائما؟

وسعت من فتحة الباب ووقفت خلفه وهي تقول:

- مرحبا، أنت في بيت أختك!

بيت أختي؟

- أتكون أختي قد بعثت وسبقتني إلى هذا المكان وأنا لا أدري، تساءلت صادقا في سري؟

قالت:

- أنا زهرة ولكن الناس ينادونني بزهور، وأنت؟

الناس؟ من الناس؟ هل ترى الناس حقا؟

- أنا محمد، الكل يسميني الشلح، ناديني بالشلح!

- أنظر إلى النافذة!

نظرت إلى النافذة. أوسع بكثير من كوة غرفتنا وغرفتها أوسع ثلاث مرات على الأقل من غرفتنا، أنظف، ورائحتها أطيب:

- مالها، النافذة؟

قالت وقد ازداد شحوبها:

- فيها عقرب، عقرب صفراء، وأنا خائفة منها!

أنا مثلها أخاف من العقارب، كثير الحذر منها، بسبب طفولتي، ولكني تشجعت وفتشت عن العقرب حتى وجدتها. كانت ملتصقة بالستارة رافعة مؤخرتها:

- صفراء بالفعل ومستعدة للعدوان، علقت!

ردت:

- رد بالك، إنها خطيرة، أخطر من الكحلة!

- ماذا تعني بالضبط، تتحدث دائما عن العقارب أو عن نفسها،

وقد تحولت من سوداء إلى صفراء، أو تراها تتحدث عن كاترين، تساءلت في سري من جديد؟

قلت لنفسي:

- كاترين ليست صفراء، كاترين بيضاء كشمعة، وتتورد تحت أشعة الشمس، بعد كل حركة تتورد كذلك!

ثم أضفت:

- كيف أصل إليها، إلى العقرب، وهي في ذلك الوضع وسط الستارة؟

سألتها:

- عندك مقبض شعر طويل؟

أجابت وهي تمسك بخصلة من شعرها:

- عندي واحد متوسط الطول!

قلت وأنا أتأمل شعرها الفياض:

- هاته!

وأمسكت بالعقرب الصفراء من وسطها بالمقبض وأنا أصرخ:

- أشعلي النار!

وبسرعة ومهارة، لم أصدق أني أقدر عليهما، كانت العقرب في المقبض

على نار البوتاجاز. شويت العقرب، صارت مثل كروفيت، عرضتها على زهور:

– تأكلين القريديس؟

اشمئزتْ من المنظر. قطعت مؤخرة العقرب والتهمتها. تقيأت زهور بين كفيها. لمّا عادت من الحنفية وجدتني لا أزال أمضغ. انقبضت عروق جبهتها:

– لماذا تفعل هذا، لماذا؟

قلت وكأني أصبحت فجأة خارج وعيي:

– أكلت الضب والثعبان والفأر، من قبل، لم آكل يومها عقربا!

أحسست برعبها. انتظرت حتى عادت من الحنفية من جديد:

– لا تتركي النافذة مشرعة بعد الآن!

قالت:

– معك الحق، الصيف حار جدا هذا العام، وأنا وحيدة، أخاف من كل شيء، اللصوص، الحيوانات السامة، والحشرات، حتى الحشرات!

قلت:

– كلنا نخاف من شيء ما فلا تخافي!

أدركت تفاهة تلك الجملة لكنها أنقذتني إذ سألتني:

- ماذا تشرب؟

ذهب ذهني بعيدا وفي اتجاهات مختلفة:

- لا يوجد عندي، مع الأسف، غير الشاي والقهوة، أضافت!

قلت:

- شاي إذن!

قالت:

- لحظة!

واستدارت نحو البوتاجاز تهييء الشاي. ساقاها نحيفان بالفعل ولكن العجزة قوية وكذلك ما بين الكتفين والعجزة: طولها هو الذي يساهم في كونها تبدو نحيفة جدا!

لاحظت كذلك وجود صور عديدة لها موزعة على مختلف جهات الغرفة. في واحدتين من تلك الصور كانت تقف أمام ميكروفون. لما وضعت صينية الشاي بيننا وهي تقول:

- اسمح لي على دخلتك هذي، مخلوفة إن شاء الله!

سألتها:

- كل هذه الصور لك؟

ابتسمت و لم تقل شيئا قبل أن أنظر من جديد إلى إحدى صورتيها أمام الميكروفون:

- وهذه... أنت مغنية؟

ردّت محرجة:

- يعني، وسيلة مثل غيرها لكسب العيش!

مدّت إليّ فنجان الشاي:

- أنا أحاول تعلم الكمنجة ولكني أكسب عيشي من عملي في مقهى!

ابتسمت من جديد:

- ومالو، عيش وصافي!

وتجرأت وسألتها السؤال الذي كنت أحاول كبته:

- وأين تعلمت الغناء؟

اكفهر وجهها فجأة وترددت كثيرا قبل أن ترد:

- حكاية طويلة!

يالخبثي: خمنت أنها قد تعلمته في المذابح إذ كان يقال عندنا أن المرء إذا أراد أن يتعلم فنا، كالعزف على آلة أو الغناء، ما عليه سوى أن يقضي ليلة كاملة في تلك الأماكن، وفي الصباح، إذا استطاع أن ينام، عندما يستيقظ، يكون قد أتقن ذلك الفن لأن الجن يكون قد تولى تعليمه!

- مهنة محترمة، سألتها؟

ردّت:

– الاحترام يخص كل واحد منا، من لا يحترم نفسه لا يحترمه أحد، أو على الأقل لا يتوقع ذلك من كل الناس!

وسكتت فسكت بدوري، أحسست بأني جرحت فيها شيئا ما أو أيقظت جرحا دفينا قد يكون سر ذلك الشحوب فاستأذنها في المغادرة:

– صحبتك جميلة ولكني أشتغل باكرا كل صباح وعليّ أن أنام!

قالت حزينة:

– وأنا ينبغي أن أستعد للذهاب إلى الشغل!

قلت محرجا:

– أعرف!

ردّت:

– تستطيع أن تزورني متى تشاء، أعني عندما يسمح لك الوقت، أنت شاب طيب، شكرا على ... العقرب!

ضحكت. ضحكت. خرجت. سمعت:

– تصبح على خير!

تساءلت وأنا أحاول فتح غرفتنا:

– من العقرب، العقرب الصفراء الخطيرة أو زهرة التي تحب اسم زهور؟

لكن صوتا بداخلي ردّ عليّ:

- لِـمَ كل هذا الخبث أم ترى أن خبثك مجرد خوف؟

تساءلت:

- لماذا أكلت العقرب، هل كنت أتذكر شيئا أم أني أردت أن أخيفها، أن أقول لزهور: هاه، أنظري، لا تلعبي معي، كما تلعبين، مع رواد المرقص، أنا أستطيع أن آكل السم!

وجدت فكرتي سخيفة...

نمت وأنا أفكر في موعدي غدا مع كاترين بينما كان الحسين يشخر وفوق وجهه كتاب!

# 25

ثالث ما حصل، كثرت ريالاتي مع ذلك الريال المثقوب حتى أني حرت في أمر تخزينها، في البداية كنت أعلّقها إلى جانب الريال المثقوب. ولكن هذه الريالات لم تكن مجرد ريالات، كانت كلها من ذهب خالص، حتى الريال الذي أهدتني جدتي فاضم كان من ذهب. ولقد اكتشفت قيمة ذلك الريال الأول، قيمته المالية لا الرمزية، بفضل الحسين. احتفظت به للذكرى، لكي لا أنسى مأساتي ولكن الحسين بمجرد ما رآه صرخ:

– ولد الحرام، عندك ريال من ذهب!

كنا في الحمام البلدي ولا أدري كيف أفلت من داخل حجري ذلك الريال فظهر للحسين، قلت له:

– لا ذهب، ولا فضة، تميمة من جدتي لتحفظني من عين بني آدم!

ضحك حتى دوّت ضحكته في كل أرجاء الحمام الفسيح:

– عين، عين بني آدم، ماذا ستضرب فيك العين، فقرك أم تشردك وغربتك؟

قلت له:

– اسكت، اسكت، اسكت، وأدر ظهرك لكي أفركك بالكيس!

استدار ولكنه ظل يضحك!

لم أكن آنذاك قادرا على تمييز الذهب عن النحاس ولكني مع هذا لم أصدق الحسين:

– ذهب، أنا أتحزم بالذهب؟

قصدت صائغا يهوديا فأكد لي أن ريالي المثقوب بالفعل ريال من ذهب وأضاف:

– يمكنك أن تحول كل مدخراتك إلى ريالات من ذهب، اعتمد عليّ!

خفت منه، فيا ما حكوا لي عما يسمونه " ربعة اليهود"، أي مقالبهم، فاستشرت الركجوني صاحب المقهى:

– إني أعرفه جيدا، سبق أن تعاملت معه أكثر من مرة، في بداية حياتي المهنية، يربح منك كثيرا ويربحك كثيرا، ثق فيه!

كان ذلك في عامي الأول بالدار البيضاء...

وصرت أزور حانوت اليهودي كلما اجتمع لدي ما يساوي ريالا من ذهب وأحيانا أقل من ذلك لأن اليهودي اطمأن إليّ وصار يعطيني الريال في انتظار أن أستكمل قيمته عنده وقد قال لي مرة، وهو يهديني كأس شاي:

– لماذا تسمي ذهبك ريالات؟

فوجئت بالسؤال وفكرت طويلا قبل أن أجيبه:

– ربما لأن الأصل فيها ريال مثقوب لم أكن أعرف قيمته!

قال:

– وهي بالفعل كذلك، حتى الذهب ريالات، يساوي، في النهاية، ريالات!

وسكت قليلا ثم أضاف:

– ستبلغ شأنا عظيما في التجارة، وربما في الحياة كلها، إذا استمرت بك الحال هكذا وبقيت تتعامل مع الذهب على أساس أنه مجرد ريالات!

قلت:

– ريالات مثقوبة، يا رجل!

ضحك فاستودعته وعدت إلى عملي بعد أن علّقت ريالا آخر مع ريالاتي الأخرى!

# 26

رابع ما وقع: أصيب سعيد الفلق بمرض قيل إنه حمق، وقيل إنه هذيان، وقيل مرض يصاب به المدمنون على الخمر، وقيل سحر من طرف مدام ماري التي التهمت جسده يافعا ورمت به وهو لا يزال شابا ثم اتخذت لها عشيقا آخر غيره...

المهم أن سعيد قد تغير تماما و لم يعد يطيق حتى أن يناديه أحد بالزنديق. ينام قليلا ويشرب أكثر ليلا ونهارا. لم يعد يحكي لنفسه ولا ظل يغني كما كان يفعل سابقا. وما رأيت الحسين في حيرة، قبل هذا، كما كان عليه أمره مع مرض سعيد. كان أحيانا يبكي ويقول:

– هل نتركه يضيع هكذا؟

والحقيقة أنا جربنا كل ما استطعنا دون جدوى: الأطباء ورجال الدين

وأولياء الله الصالحين والمشعوذين!

لم يعد سعيد يحتمل حتى الكلام معنا:

– ما هذا المرض الذي، كالموت، يخرس صاحبه، أسأل الحسين؟

– علمي علمك، ربما كان سعيد يتناول، خلسة، شيئا آخر، مع الخمر، قد يكون تعوّد عليه، لما كان لا يزال يعيش في الشارع، وقد يكون أحبّ مدام ماري وأوحى إلى نفسه الساذجة بأنها تبادله نفس الحب، قد، وقد...!

صارت لغتنا تدور كلها حول "قد" و"ربما"!

ولكن سعيد استيقظ، ذات صباح، وقبل وقت الذهاب إلى عمله بكثير ليوقظنا:

– أريد أن أودعكم، سأرجع إلى تادلة، لم تعد لي حياة في هذه المدينة الفاسقة، سامحوني ولا تنسوا كل هذه العشرة!

ودعنا وخرج، وهو يبكي، لا يحمل معه غير الثياب التي كانت على جسده، كأنه يفكر في الندم والعودة!

ولكنه بدل التوجه مباشرة إلى تادلة خرج إلى مفترق الطرق ببرشيد وجلس هناك غير عارف أية جهة يقصد: مراكش أو تادلة أو الرجوع إلى الدار البيضاء؟

وبينما هو كذلك مرت قافلة المعاريف عائدة من الدار البيضاء فالتقطه

أحد كبارها، الشيخ المعطي. كان للرجل زوجتان ولكن لم تكن له خلفة. الزوجة الثانية كان قد مات زوجها الأول، قتله ثور، وتركها وبنتا لم يتجاوز عمرها العام. تزوجها الشيخ المعطي، لأنها قد ولدت من قبل، أي ليضمن أنها ستأتيه بالولد الذي سيخلفه ويجعل ذكره مستمرا بين أهله. قال له عالم في الدار البيضاء:

– ليبلونّك كما ابتلى الذين من قبلك!

ثم سكت وأضاف:

– كلّ أبناء المسلمين أبناؤنا فتبنَ أحدهم أو اصبر!

وما وجد غير تلك البنت، بنت زوجته الثانية، يتبناها فظلت نفسه في ولد. توقف ينظر إلى سعيد وهو يفكر:

– هل مازال مثل هذا الولد قابلا للتبني؟

سمعه أخوه فرد عليه:

– إنه مثل الحلوف، يصلح لأن يكون خماسا أو رباعا أو راعي غنم!

قال الشيخ المعطي:

– ولكن انظر إليه إنه يبكي!

ردّ الأخ:

– قد يكون خائفا، هاربا من جريمة ارتكبها!

كان الزنديق يبكي من شدة الحرمان: لم يذق طعم الخمر منذ يومين!

ولكن الشيخ المعطي شعر بعاطفة غريبة تجاه سعيد:

– لا، لا، إنه وحيد، ليس له أحد في هذه الدنيا، قد يصلح لي ابنا! احتج الأخ:

– ألعن الشيطان، هل يعقل أن تتبنى شخصا في مثل هذه السن، قد تجاوز عمره العشرين؟

اقترب الشيخ المعطي من سعيد:

– ماذا تفعل هنا، يا بني؟

رفع سعيد عينيه الدامعتين نحو الرجل:

– لا أعرف إن كان عليّ أن أذهب إلى تادلة أو مراكش أو ارجع إلى الدار البيضاء!

سأله الرجل بلطف:

– تأتي معنا إلى المعاريف؟

ونهض سعيد:

– المعاريف، قبيلة المعاريف؟

أكد الرجل دعوته فردّ سعيد:

– أذهب... بكل سرور... بعد كل ما سمعت عنها ورأيت في الدار البيضاء!

واختفى اسم الزنديق من الوجود. أصبح سعيد هو سعيد بالفعل ولا أحد يناديه بغير هذا الاسم، يحكي وهو في غاية السعادة!

– لم أفهم، حتى هذه الساعة، كيف يمكن للمرء أن يتغير بمثل هذه السرعة، يضيف سعيد: ربما، أحاول أن أبرر ذلك لنفسي، يكون العطف الذي شملت به هو السبب!

سأكتشف، فيما بعد، أن هذه الحكاية، التي رويت لي من طرف الحسين، ومن طرف سعيد نفسه، ليست صحيحة كلية، كانت فيها عناصر كثيرة للتقية، للتمويه: كان الحسين يعرف لماذا مرض الزنديق ولماذا رحل إلى المعاريف؟ كانا يمثلان عليّ وأنا أمثل معهما، بلا وعي مني، في مسرحية لا أعرف لا موضوعها ولا روحها!

# 27

الأدهى من هذا والأمر تغير سلوك الحسين تجاهي. صارت العلاقة تسوء بيننا بشكل بطيء ولكن متواصل. لكم ساءني ذلك: كنّا أخوين منذ الصغر يرعاني وأرعاه؛ ماذا كنت سأفعل دونه في هذه المدينة؟ لقد وجدت فيه كل الأهل الذين تركت بعيدا غير نادم على الهروب منهم: أعز الأحباب الذين تحولوا إلى ألد الأعداء!

وها الحسين يتفادى أن نكون معا لوحدنا، يتجنب الكلام معي، وإذا كلمني يكون إما غاضبا وإما بتعالٍ وفي الحالتين متوتر الأعصاب: أين اختفى الحسين الطيب، الودود، الذي يجد أكبر متعه في مساعدة ورعاية الآخرين؟

يبدو لي أن هذا التحول قد بدأ يوم شاع خبر علاقتي بكاترين، قال لي يومها، وهو في حالة غريبة من التوتر:

– هؤلاء القوم أعداء لنا، احتلوا أرضنا، ينهبون خيرات بلدنا، وهاهم ينهبون عقول وقلوب أبنائنا!

أجبت غير مصدق:

– وما دخلني أنا، فيم أسيء إلى بلدي؟

ردّ وهو أكثر توترا:

– فيم تسيء إلى بلدك؟ ليكن في كريم علمك، يامحترم، يا متعلم، أنك تتردد على مدرسة للتبشيريين، أناس يريدون نشر دينهم مكان ديننا، أي يسرقون منك معتقدك، ويعلمونك العلمانية، أي يسرقون منك عقلك، وها كاترين تسرق قلبك، أي تحكم تغريبك، كل هذا ولا ترى شيئا؟

وأقسمت له، من جديد، أن تلك الدروس التبشيرية إنما تدخل في رأسي من جهة وتخرج منه من جهة أخرى ثم أضفت:

– ومالمانع، مع ذلك، أن أطّلع على دينهم وأن أقارن بينه وبين ديننا، ألا يقوي ذلك إيماني، أو ليس المؤمن القوي خيرا من المؤمن الضعيف؟

أطلق ضحكة ساخرة أزعجتني:

– يا غبي، يا مغفل، لن تجني من كل هذا غير الشك، وإذا ما نجحوا في إدخال الشك إلى نفسك فإنك لن تستطيع أن تتخلص منه، لن تجد من يساعدك على ذلك، لن تجد غيرهم، وفي أحسن الأحوال سترتد عن دينك وتهرب من دينهم، ستصبح كافرا بالله!

ضحكت ساخرا بدوري:

– وماذا، فضيلتكم، لو كنت أعتقد في اللـه دون اللجوء إلى أي واحد من الأديان؟

اكتفي بابتسامة مرة ثم أضاف:

– وهذا دليل قاطع على أنهم قد بلغوا مبتغاهم فيك!

وانصرف وهو يردد:

– يعتقد في اللـه دون إيمان، يعتقد...!

حصل هذا ونحن في قبو المقهى إذ نزل الحسين يطلب كؤوسا نظيفة تأخرت في الصعود بها إلى فوق. وحين التحقت بالبيت، بعد أن سبقني إليه، تظاهر بالنوم لكي يتجنب الكلام معي لكنني أعرف كيف، ومتى، يكون نائما بالفعل؟ فقلت له مستفزا، ولم يكن غرضي غير مراضاته:

– أعرف أنك لست نائما وأعرف أنك تتظاهر بالنوم لأنك أصبحت جبانا وغير قادر على إقناع أحد بأفكارك!

التفت إليّ هادئا وأخذ ينظر إليّ وأنا جالس على حافة السرير أنظر إليه بدوري ثم جاءني صوته، كأنه يخرج من مغارة:

– المصيبة؟ تعرف المصيبة؟

خفت فقلت:

– أعوذ باللـه، اللـه يحفظ!

تابع:

– المصيبة أن معك الحق، أشعر بأني ضعفت، بأن شيئا ما تكسر بداخلي!

فكرت في سعيد: أيكون فراقه قد أحزنه إلى هذا الحد؟ سألته:

– حزين على فراق سعيد؟

ردّ وهو يتنهد:

– على سعيد، وعلي، وعليك!

سعيت إلى استغلال هذه الفرصة لأشرح له علاقتي بكاترين:

– أنا، صراحة، وأنت أخي الذي يعرف أني لا أخفي عليه شيئا، أنا لا أفهم ما الذي يحزنك، أو يخيفك، في علاقتي بكاترين، كاترين مجرد فرنسية في حاجة إلى القديد المغربي، فقط...

أراد أن يعلق فتابعت:

– علاقة يوم الأحد، حب يوم الأحد، نقضي نصفه في السرير والنصف الآخر في السينما أو البحر!

نجح في أخذ الكلمة مني هذه المرة:

– يا أخي، هؤلاء قوم لا يستقرون على علاقة عاطفية واحدة، وحتى إذا تزوجتك، وهو ما يخيفني، فإنها ستنتهي إلى تغييرك بقديد آخر، كما تقول، بسهولة مثل تلك التي تغير بها سراويلها، أو ملابسها الداخلية!

ركبني شيء من الحمق:

– وماذا لو تزوجنا وتطلقنا بعد ذلك؟

أجاب محتفظا على هدوئه ونعومة صوته:

– ستفقد شيئا هاما، هام جدا من نفسك: السوسي، السوسي الأصيل، لا يطلق، يتزوج مرة واحدة في العمر، لأنه يعرف ما يريد من المرأة كما يعرف ما تريد منه المرأة!

فكرت في هذا الأمر قليلا: لا أعرف سوسيا تزوج أكثر من مرة، بأكثر من امرأة، في ذلك الزمان!

قلت:

– كنت أمزح، أخرف، آسف!

إلا أنه تابع بكل صرامة وهدوء:

– والسوسي لا يزني لأن الزنا يقتل النفس، يقضي على كل ما يتبقى للرجل من كرامة، خاصة إذا كان مع بائعات اللذة ومع النساء المتزوجات!

ظننت أنه يشير إلى علاقتي بزهور:

– لا تشر إلى هذه المرأة المسكينة بسوء فليس بيننا أكثر من علاقة إنسانية، نظيفة، نموذجية!

استمر في صرامته وهدوئه:

- دعني أقل لك ما يقوله أصحابنا عنك في المقهى: إنك تشوه سمعتنا بمصاحبة النصرانيات وفتيات الليل!

قلت خائبا:

- يا سلام، أنا كل هذا بحمد الله؟ وكيف أشوه سمعتكم النقية، أيها السوسيون، يا أهل العفة، والصدق، والجد، والكرامة؟

سكت قليلا ربما ليزن كلامه:

- أقول لك كيف: هؤلاء القوم، كما قلت لك، أعداء لنا، نكرههم، وأنت تحبهم، وصاحبتك زهور تغني وترقص لهم، تخدمهم و...؟

قلت:

- كفى، كفى، يا كبير المقاومين!

وفجأة أدار وجهه جهة الجدار وتركني أفكر في كل حبال هذه الشبكة التي سجنني فيها فقلت لنفسي:

- إنه خائف، الحسين خائف فقط!

ولكن مم كان الحسين خائفا؟

جاء البوليس الفرنسي مرتين إلى المقهى، على إثر انفجار قنبلتين أخريين في مكانين مختلفين بالدار البيضاء، يسأل عنه، والغالب أنهم جاؤوا قبل ذلك، وبعده، متنكرين. سألنا كبيرهم:

- أين كان الحسين يوم كذا ومع من؟

كنا نعرف الجواب جميعا عن ظهر قلب:

– متى التحق بكم ومتى غادر؟

كنا نعرف الجواب كذلك:

– أين ذهب قبل أن يلتحق ببيته؟

كنا نعرف الجواب عن كل هذه الأسئلة وعن أخرى لم يطرحوها علينا بعد: الحسين هو الذي علمنا الأجوبة عن مختلف هذه الأسئلة:

– نتعلم كيف نحمي بعضنا البعض قبل أن ينكل بنا هؤلاء الكفرة، يكرر مرارا وهو يلقننا، أو يراجع معنا، تلك الأسئلة والأجوبة!

وأنا في هذا الوضع سمعت وقع حذاء زهور. قفزت إلى الممر:

– خلعتني، بسم الله الرحمن الرحيم، مالك؟

لفقت أول كذبة:

– لم أستطع النوم فقلت أخرج قليلا من الغرفة!

قالت:

– إذن تسهر معي هذه الليلة في المرقص؟

فكرت:

– لِمَ لا؟ ألم أصبح منحرفا في نظر الحسين؟ أو ليس هذا ما يقولونه عني في المقهى وفي اجتماعاتهم الخصوصية؟

كانت هناك سيارة صغيرة وقديمة جدا في انتظارها. ركبت جنبها. تحركت العربة. في هذه اللحظة تذكرت كاترين وشعرت بالرغبة في التحدث عنها مع زهور:

– أنا لم أستطع النوم لأني في علاقة مع فرنسية وهذه العلاقة تشغل بالي بشكل غريب!

وحكيت لها شيئا من قصتي مع كاترين.

قالت زهور:

– ناري، النصارى، هذاك ما خرج علي، ما خرج علي غير حب النصارى، عندك تخرج على راسك كيف خرجت على راسي، ها أذني منك!

وقفت السيارة أمام مكان مزين بألوان وصور كثيرة من جملتها صورة لزهور وهي تغني. نزلت فنزلت بدوري. قلت لها:

– تصبحين على خير!

يبدو أنها فوجئت:

– ألا تدخل معي؟

لم أجب فأضافت:

– كنت سأفرح بك!

وسكتت قليلا ثم زادت:

– وكنت سأفاجئهم بأن أطلب منك العزف على الكمان!

قلت:

– مرة أخرى، إن شاء الله، سدت نفسي عن المرح!

وانصرفت، تهت، لأول مرة، في ليل الدار البيضاء، قلبي على الحسين وزهور وعقلي على ريالاتي وكاترين!

# 28

لم يكن الحسين خائفا فقط. لقد كان مريضا كذلك. ونجحنا في إدخاله إلى المستشفى بصعوبة كبيرة نظرا لمقاومته الشديدة لهذا الأمر. قبل أن يفحصه الطبيب، صديق علي صاحب المقهى، أجرى علينا جميعا، نحن الذين كنا نعاشره من قريب أو من بعيد، بعض الفحوص ثم طمأننا الواحد بعد الآخر:

– الحسين وحده مصاب!

لقد أصبح يسعل بشكل لافت للنظر إلى درجة أنه كثيرا ما يخرج من فمه بعض الدم. ارتفعت درجة حرارته بحيث يستطيع الواحد منا أن يحس بها بمجرد مصافحته. صار نومه قليلا ومتعثرا:

– أصيب بالسل، أضاف الطبيب الذي أمر بالاحتفاظ به في المستشفى.

ولكن الحسين كان يشعر بأنه سيموت:

– وبما أني ميت حتما فإني أفضل أن أرحل إلى بلدتي لأموت هناك!

صرنا نتناوب على زيارته ولكني كنت أذهب إليه كل يوم وحدي أو مع أحد الزملاء. ومر حوالي أسبوع على دخوله إلى المستشفى. زرته وحدي حاملا أكلا وملابس نظيفة. ابتسم لي. لم يبتسم منذ وصل إلى المستشفى. قلت له:

– الحمد لله على لطف الله، ها أنت تبتسم أخيرا!

سكت طويلا وأنا بالقرب منه لا أعرف ما أقول أو أفعل ثم قال:

– داخل وسادتي وسادة أخرى أصغر أريدك أن تأتيني بها عندما ترجع لزيارتي!

لم أفتح الوسادة الكبيرة. جئته بها كما تركها على فراشه. تفحصها من كل الجهات ثم قال:

– هذه كل مدخرات عمري!

استغربت:

– مجنون، تدخر في وسادة؟

ابتسم:

– على طريقة جدتي فاضمة رحمها الله!

ثم أضاف:

– وهي أفضل، على كل حال، من طريقة الادخار في الحجر!

تحسست ريالاتي. مازالت في مكانها، على ما يبدو!

رجعت إلى العمل وأنا أتخوف مما خطر على بالي:

– أيعقل، بعد كل الذل والإهانات، يرجع؟

عدت في الغد لعيادته من جديد. كان سريره فارغا. أكيد أنه غادر إلى البلد، إذا لم يمت وهو في الطريق إليه!

لم أرجع إلى العمل ذلك الزوال. ذهبت إلى البيت مباشرة. كنت حزينا ومتعبا ومع هذا لم أستطع أن أنام، سمعت، وأنا في تلك الحال من الضيق، طرقا خفيفا على باب الغرفة. قلت:

– لا شك أنها زهور!

ترددت في فتح الباب لكن الطرق استمر. قمت وفتحت الباب:

– سعيد، كيفك، يا ناكر العشرة!

احتضنني:

– اشتقت إليكما، لم أستطع مقاومة الشوق فطرت إليكما!

لم أنتبه في البداية إلى "إليكما" حتى أضاف:

– أين ولي الله الحسين؟

كان قد جلس على حافة سريره، الذي خلفته فيه، تماما كما كان يفعل قبل أن يرحل عنا:

– الحسين مريض، اللـه ينجيك!

كأني ضربته على رأسه:

– مريض، بم هو مريض؟

قلت:

– بأشياء كثيرة على رأسها السل!

التقطت أذنه" أشياء كثيرة ":

– بأشياء كثيرة، ماذا تعني؟

ماذا أعني؟ أنا نفسي لم أكن أعرف على وجه الدقة: عبارة سجينة هربت من حبس لساني. فكرت قليلا:

– كان يعاني من أشياء كثيرة: الخوف، والتعب، والوحدة، وضيق اليد، والنفس الحارة!

فكر بدوره قليلا ثم قال:

– المرء الذي لا يصلي، ولا يشرب، إنسان كهذا لا أعرف كيف يستطيع تحمل مرارة الدنيا؟!

شعرت بأنا سنغرق في المرارة فقلت له:

– وأنت، ما زلت تدمن على الخمر؟

ابتسم:

– لا، عوضتها بالصلاة!

ضحكت:

– مجانين، أصحابي مجانين، لا تعرف على أي شيء سيستقرون!

وأكد كأنه يعرف أني لم أصدقه:

– صدقني، وجدت راحة أكبر في الصلاة!

وعاد إلى الحسين:

– وأين الحسين الآن؟

أحسست مسبقا بوقع ردّي عليه:

– كان في المستشفى ومنه هرب إلى البلدة!

فاجأني برد فعله:

– سيحدث له ما وقع لي، سيجد نفسه في مكان آخر: لا نجد أبدا البلد الذي نرغم على هجره حينما نعود إليه!

كنت سأضيف:

– ولكن الحسين مريض!

غير أني امتنعت عن ذلك واكتفيت بالقول:

– الحجر يتغير!

لم أدرك معنى لما قلت فاستدركت:

– وأنت كيف حالك، وكيف هي حال المعاريف؟

قال وقد تجهم فجأة:

– أنا تزوجت العام الماضي من بنت الشيخ المعطي، الرجل الذي كفلني!

علقت مسرورا:

– مبروك، كنت في حاجة إلى أمّ!

ماذا قلت؟ يلعن لساني اللعين! قال:

– الحمد لله، وجدت أهلا، عائلة حقيقية!

وتوقف قليلا كأنه يريد أن يتأكد مما قال ثم أضاف:

– غير أن المجاعة قد التهمت كل مظاهر الحياة!

كأني لم أسمعه:

– المجاعة؟

أجاب:

– أنتم لا تشعرون بها كثيرا في المدينة بالرغم من أنها موجودة في المدن كذلك: الناس تأكل حميرها وكلابها، وبغالها، حتى الثعابين، وهناك مناطق يقال، والله أعلم، أن الناس

استوقفته:

– ولكن المعاريف بوب والقطاني!

قال:

– صحيح . ي البلد لم يعودوا يجدون حتى "إرني"!

سألته

– "

ردّ:

– ب البصل وتنبت تحت الأرض!

ق

– نفدت؟

قال:

– ندرت، وما بقي منها يُصدر، كل ما أفلت من الجفاف يُصدر إلى الخارج، حتى الرجال، فرنسا في حرب!

وحضرني كلام الحسين:

– إنهم يستغلوننا، يقطعون أنفاسنا ويشربون دمنا، وكل هذا الطعام الجيد من لحم أجسادنا، وكل تلك الملابس الأنيقة من عروقنا!

فتذكرت كاترين:

– أيكون كل هذا الرفاه الذي تعيش فيه مني، من لحمي ودمي؟

لقد أصبحت كاترين في الفترة الأخيرة مثل الكلبة الحائل: كلّ أحد مع رجل ولكنها تصر على أن أبقى عشيقا لها، كيف أكون عشيقا لامرأة أصبح لها عشرات العشّاق؟

تسلل الحسين إلى رأسي من جديد:

– العلاقة مع هؤلاء النصرانيات، ولو كانت في صيغة زواج، علاقة تقتل النفس، تذل!

وأعود إلى التساؤل:

– لم تتشبث بي، وبهم جميعا، إلى هذا الحد؟

ارتفعت حدة الاغتيالات، والتفجيرات، والمطاردات، في الدار البيضاء، وخارج الدار البيضاء، كازابلانكا لم تعد كازا:

– كاترين خائفة، خائفة بصورة غير الصورة التي أصبح الحسين خائفا بها!

أنا على يقين ولكني أتمنى في نفس الوقت أن يكون هذا اليقين كاذبا أو على الأقل ضعيفا!

قلت لسعيد:

– ما رأيك في أن نغني بعضا مما كنت تغنيه أيام زمان؟

قال:

– والله اشتقت إلى ذلك الغناء!

أخرجت الكمان من تحت السرير وصلى سعيد ركعتين ثم أخرج زجاجة خمر من قب جلبابه:

– سعيد، قلت لي إنك تصلي؟

قال وهو يفتح الزجاجة:

– نحن في الدار البيضاء، أصاحبي، وغدا سأعود إلى المعاريف، هناك سأكثر من الصلاة، ليس لي غير الصلاة!

ضحكت حتى سقط الكمان من بين يدي فقال:

– وها أنت ستكسر الصديق الوحيد الذي بقي لك في الدار البيضاء!

أمسكت كماني بين يدي من جديد وبدأت في تسوية أوتاره فلما انتهيت من عزف القطعة الأولى التحقت بنا زهور. جاء بها صوت الكمان. الكمان وحده. لكنها غنت في تناسق تام مع صوت سعيد. ولا أدري ماذا فعلا بعد أن توقفنا عن الغناء فقد استسلمت للنوم قبلهما. في

الصباح كان سعيد قد رحل بينما كانت زهور لا تزال نائمة في سريره وأنا في سرير الحسين. لم تذهب إذن البارحة إلى عملها:

– أيستطيع سعيد أن يغوي إلى هذه الدرجة؟

أنا بدوري لم أذهب إلى العمل. استلقيت من جديد داخل السرير ونمت حتى الظهر. وحين استيقظت لم أجد أثرا الزهور: كأن شيئا عظيما قد تغير بيننا، فينا، ومن حولنا، جميعا!

# 29

أخذت ريح التغير تتقوى، تأخذ شكل العاصفة... وأنا في قلبها!

وها قد بدأت علاقتي بكاترين تسوء بشكل أسرع. إحساسي بالقرف يكاد يخنقني حين أكون معها. أدخل معها إلى السرير وكأني أدخله مع بائعة لذة أعافها. وحين نكون مع رجالها الآخرين صرت أحس برغبة متزايدة لاستعمال العنف سواء باللسان أو باليد، أصبحت مثل المجنون معها، ذليلا، حقيرا، لا قيمة لي، لا عندها، ولا عند رجالها، ولا عند نفسي:

– أحس بأني على استعداد لارتكاب جريمة، لأن أقتل أي أحد، وقد أقتل نفسي، وذلك رغم إلحاحها:

– إنكَ حبي الوحيد، الحقيقي، هؤلاء الرجال للتسلية فقط، لا قيمة لهم عندي ولكن...

السر في هذه الـ"ولكن"، ما معنى "ولكن" هذه، هل لها معنى قابل للفهم، على الأقل من جهتي؟ لا هي قادرة على فك لغز "ولكن" هذه ولا أنا!

ومع ذلك فإني سعيد وأنا أرى علاقتي معها تتفكك بهذا الشكل: كانت نزوة فتحولت إلى مغامرة وأصبحت المغامرة تتحول إلى تورط، كأني سجنت في حقل تفاح لأني سرقت منه تفاحة ذات يوم!

إني لا أكف عن اكتشاف أني لم أكن أعرف حقا كاترين وأني لن أعرفها يوما على حقيقتها ولكني أتساءل كذلك باستمرار:

– هل تعرف هي حقيقتها؟

هناك شيء هام، خطير، يضيع منها ومني، دون توقف، في تلك العلاقة:

– هذا يقيني الوحيد آنذاك!

وعلى العكس من هذا كله علاقتي بزهور التي بدأت بالضعف، أو اللطف، واستمرت في شكل واضح من العنف: كانت معرفتها أسهل، أسرع، ولكن الخيبة، والتوتر، فيها لم تتخلف طويلا!

استمرت زهور تتسلل إلى حياتي من خلال لطفها، أو ضعفها، كما قلت. غير أن هذا اللطف كان يكشف كل يوم عن شيء من المكر، من

الدهاء المتواضع، الذي تحده، من حيث الحدة والمدى، سذاجة، أو صورة من البله، تفسد عليها، وعليّ كذلك، كل شيء:

– كيف تستطيع امرأة أن تعيش على وهم؟ تكذب على نفسها بأنها فنانة وتصدق ذلك والناس من حولها يصفقون لكذبها على نفسها، لوهمها، يستغلون وهمها وهي تزداد فرحا، وذبولا، وسط عاصفة تلك التصفيقات الكاذبة.

كانت تكثر عليّ من عبارات "خويي"، "صحيبي"، "لحبيبة"... إلخ، ولكني حين اصطحبتها، لأول مرة وآخرها، إلى علبة الليل التي تشتغل فيها، كانت توزع هذه العبارات، وكذلك الابتسامات والقبلات، على جميع الزبناء، نصارى ومسلمين، بسخاء لا يتصور، بجسارة، بلا حياء.

وهنا، في هذا المكان، تكون سعيدة، تبدو في صحة جيدة، مشعة وقوية. أما في غرفتها فتصير مريضة، ذابلة، ضعيفة، تخاف من أضعف الحشرات: زهور شخصان، واحد للنور وواحد للظلمة. وهي تمثل الدورين ببراعة إلى درجة أنها تعتقد في أنها هي نفسها في الحالتين.

من هنا ضعفها، أو لطفها، الذي أصبح مكرا، تجاهها، أولا، قبل أن يكون تجاه غيرها. ولكن هذا النوع من المكر، أو الدهاء، مجرد سذاجة، نقص في الذكاء. لهذا تصبح صيدا سهلا لكل من يعرف استغلال أحد هذين الوجهين أو هما معا: زهور الذابلة أو المشعة!

إنها تريد ذلك، هي كل ذلك، وتدفع الرجال إليه، ولكنها لا تكف عن

البكاء على سوء حظها مع الرجال، عن عدم تقدير الرجال لها كامرأة:

- أولاد الحرام الرجال، يا خويا، نصارى ومسلمين، فطموا جميعا على الغدر بالنساء!

مرة سألتها زميلة لها، هامسة، وأنا أهيىء لهما الشاي:

- ماذا تريدين أن تفعلي بهذا الشلح؟

أجابتها هامسة بدورها:

- أحتفظ به إلى أن يبعث إليّ الله برجل!

ودوت قهقهتهما في كل الغرفة!

وضعت بينهما صينية الشاي وذهبت إلى غرفتي، أغلقتها عليّ، وبكيت طويلا:

- أنا علاقتي بها لا تتعدى الصحبة، والعطف، وهي تقدمني إلى الناس كزوج، ولا تكتفي بهذا، تصر على أن تسخر مني، من يغدر بمن؟

كذلك تفعل مع بقية الرجال: تنام في حضن نصراني، وهي تفكر في مسلم، أو العكس. وعندما تكون في الملهى الليلي تفكر في كل الرجال الحاضرين ولا تفكر في أحد على وجه الدقة:

- مسكينة أو جنية كحلة؟

صارت تكبر في رأسي صورة الجنية الكحلة فأصبحت خائفا منها كما كان سعيد والحسين يخافان منها: صرت خائفا من امرأة خائفة بدورها،

خائفة من أن تكتشف نفسها على حقيقتها، من أن تطل عليها مجرد إطلالة صغيرة:

– ما الفرق إذن بين كاترين وزهور، على هذا المستوى؟

أبسبب مثل هذا الخوف جاءني الركجوني صاحب المقهى؟ نزل إلى حيث كنت أشتغل وظل يتظاهر بأنه يبحث عن شيء معين ولكنه من حين لآخر يستجمع بعض شجاعته ويتوجه نحوي ثم يغير رأيه ثم يحاول من جديد إلى أن سألته:

– لمعلم؟ تبدو مشغول البال!

ردّ:

– عندي شيء مهم أودّ أن أقوله لك!

التفت جهته وأنا أمسح الماء في سروالي:

– حاضر، ألمعلم، تفضل!

نطق بصعوبة:

– البوليس أكثروا من السؤال عنك وعن الحسين هذه الأيام الأخيرة!

توقعت أنه يمهد لفصلي بطريقة تعفيه من كل شعور بالذنب:

– أنا على استعداد لأن أترك هذا العمل إذا كان وجودي يجلب لك المتاعب!

لكنه انتفض في وجهي:

– ماذا تقول، يا ناكر الخير؟ أنا أتخلى عنك وعن الحسين، عن أهل بلدي، دمي وعشيرتي؟

عز عليّ حاله:

– طيب، ما المطلوب مني؟

استرجع هدوءه وفكر بعض الوقت:

– كم معك من المال، كم ادخرت أقصد؟

أطلعته على المبلغ دون احتساب ريال جدتي فاضم، بطبيعة الحال:

– هل لديك مشكلة، ضائقة مالية، وتحتاج إلى هذا المال؟

أجاب:

– لا، ليس الأمر كما تصورت!

أنا لم أتصور سوى أني قد أقرضه هذا المال، إذا احتاج إليه، وأنا على يقين تام من أنه سيرده إليّ عندما تتحسن أحواله؟

قال:

– هناك رجل، فرنسي، خائف، ويبحث عن كيفية للتخلص من حانته، يريد أن يبيعها بأي ثمن خشية أن تضيع منه كاملة ذات يوم!

اعتقدت أني فهمت:

– وتريد أن أقرضك هذا المال لتشتريها منه؟ على راسي وعيني!

اعترض:

– لا، لا، لا، أريدك أن تكون شريكي، أشتريها أنا وأنت برأس مال مشترك!

لم أصدق أذنيّ:

– ولكن، ألمعلم؟

رد حاسما:

– لا ولكن ولا ولكنه، أنا لا أستطيع أن أدير محلين في نفس الوقت وأنت قد أصبحت خبيرا في هذه المهنة، تستطيع أن تدير محلا كهذا وحدك، ونقتسم الربح!

لم أفكر في الربح، فكرت في الخمر:

– ولكنك قلت إنها حانة، نتحول إلى باعة خمر؟

أضاف بنفس الحسم:

– حانة ومطعم ومقهى، كما نبيع الشاي والقهوة والموناضا هنا نبيع الخمر هناك، مالها؟

ولكنه استدرك أمام ذهولي:

– أو نحذف الخمر ولا نبيع إلا الحلال!

ابتسمت رحمة بتوتره واضطرابه فقال:

- ابتسامتك تعني أنك موافق؟

قلت وقد زدت من ابتسامتي:

- موافق، موافق، ألمعلم!

أضاف:

- سأخبرك بموعد إجراء هذه الصفقة!

والله إنها لصفقة: من القبو، من حفرة في القبو، يخرج محمد الشلح إلى امتلاك وتسيير حانة!

ومع ذلك بقي في نفسي شيء من هذه الصفقة: لماذا يشركني الركجوني معه وهو قادر على اقتناء تلك الحانة وحده؟ هل أكثر البوليس من السؤال عنه بدوره؟ فرضية حمقاء؟ كلنا نحمل أقنعة، تقية؟ أنا، تقيتي أنا؟ عازف فاشل على الكمان، محظي فرنسية، حارس أمن مغنية! فبأية تقية سأصبح صاحب حانة ومطعم؟

لن أثق في أحد بعد الآن: من كان يصدق أن الحسين كان يعاشر الفدائيين ويتدرب معهم على المقاومة؟ كاترين؟ هي التي نقلت إلي الخبر بعد مرضه:

- احذر من صديقك، احذر من أن يورطك في مصيبة، إنه مع الإرهابيين!

ومن كان سيصدق بأن تتحول هذه البطة البديعة إلى كلبة شرسة تطلب السفاد بكل ما تستطيع من قوة؟

– أشعر بأمان أكثر وأنا أضاجع عددا أكبر من الرجال، ولكنك حبي الوحيد، تقول لي بكل وقاحة!

وهذه الزهرة الذابلة، المشعة في الأنوار الاصطناعية، كيف أصبحت جنية كحلة، تتسلى برجل في انتظار آخر؟

– سيصل فارس أحلامي، من مكان ما في فرنسا، سيصل وتنتهي آلامي، تقول لي بدورها واثقة من أنها لا تسبني ولا تهينني؟

وكيف انتهى الحسين، المدمن على القراءة، والضحك، واللطف، إلى كل تلك المرارة التي أعادته إلى بلدة يكرهها، ليست له فيها ذكرى واحدة جميلة؟

وها هو سعيد، بعد الخمر والطرب، يعود إلى الصلاة والإكثار من ذكر الله حتى لتخاله قد أصبح واحدا من أولياء الله! وكيف يستطيع ولي الله هذا أن يتنكر للشيخ المعطي، الذي تبناه وأحسن إليه، ويطلق ابنته ثم يلتحق بخدمة القايد المعروفي؟

الحقيقة أن وضعا كاملا كان قد تغير ونحن لا نعي هذا التغير بشكل كامل وفي وقته. أهم ما يطبع هذا الوضع الجديد هو ازدياد ثقة الناس في أن الاستعمار سيغادر البلد عاجلا أو آجلا. وذلك رغم كثرة الاغتيالات وارتفاع حدة التعذيب والنفي. في مقابل كل هذا ارتفعت درجة الأمل:

– الأمل يسهل التضحية، يزعم الحسين!

غير أن الخوف ظل يفرخ بدوره، في أشكال ودرجات مختلفة، لدى جميع الأطراف، عند كل الفئات، حتى تلك التي لم يكن لديها ما تخسره:

– هناك تهديد دائم للحياة، للحرية، للكرامة...تقول كاترين!

ثم يضيف صاحبها الجديد:

– والأمر لا يتعلق فقط بصيغ الخوف المعقلن، مثل الحذر والحيطة، ولكن أكثر من هذا بالخوف الغامض، الخوف الأعمى!

خوف أعمى، غامض؟ هل منه هذا الذي ظل يلتهمني، وأسنانه تتقوى، يشحذها فيّ، منذ صغري، يجعلني أتحسس باستمرار مكان ريالي المثقوب!

# 30

عاد الحسين من البلد. شفي تماما من المرض. أطلق الحرية للحيته لتنتشر على وجهه بطريقة فوضوية:

- سمنت وثقلت، قلت له مازحا، ولكن هذه اللحية تأكل من وجهك، تجعله نحيفا وغير متناسب مع بدانتك!

قال باسما:

- الأكل والنوم والهواء الطيب، عناصر عندما تتوفر بكثرة تعلم الكسل!

ظننته يمزح مثلي فلم أسأله عن مصادر "عناصر عندما تتوفر بكثرة تعلم الكسل!" لكنه هو الذي سألني:

– لم تسألني من أين لي بـ"عناصر عندما تتوفر بكثرة تعلم الكسل"!

قلت مجاريا فقط:

– بالفعل من أين لك بها؟

تأملني قليلا كأنه يتأكد من شيء:

– بنات عمك، يا زعيم؟

ليس من عادته أن يمزح بشئون العائلات:

– بنات عمي، من تقصد؟

ركز بصره في عينيّ:

– بنات عمك أحمد يوسين!

قلت:

– لا أفهم، مالهن؟

نظر جهة النافذة:

– عمك مات وترك وراءه جيشا من البنات، كتيبة كاملة!

كدت أقول:

– إلى الجحيم، لا رحمة الله!

ولكني خجلت:

– وما علاقتهن بالأكل... وغيره مما ذكرت؟

عاد ينظر إليّ بتركيز من جديد:

– يبدو أن أمي أخطأت وأرضعت إحداهن!

هل يقدر الحسين، في مرضه ذاك، أن يعبث بإحدى بنات عمي؟

– من منهن؟

نظر جهة النافذة من جديد:

– الكبرى، هل تذكرها؟

وكيف لا أذكر تلك المسمومة التي كانت تقرص، وتقمش، وتعض، وهي تصرخ باكية؟ كم من أثر رسمت على جلدي ورأس أختي!

– عائشة، أجبته!

تابع:

– عائشة، مازالت دون زواج، كبقية أخواتها...

قاطعته:

– ومن يتزوج ببنات اليوسين؟

تجاهلني:

– عندما وصلت إلى البلد لم أجد مكانا ألتجيء إليه. قضيت ليلتين تحت تينة. مرت بي عجوز وسألتني عمن أكون: أبوك، أمك، جدك...

تعرف، فلما أخبرتها بكل شيء سألتني:

– هل تعرف أن لك أختا من الرضاع؟

لم أكن أعرف. قالت لي:

– عائشة بنت أحمد اليوسين، مازال خيرهن كثيرا، بالرغم من كل ما بدر أبوها، ولن ترضى بأن تسمع بأن أخاها ينام في العراء، اذهب إليها لتعتني بك فأنت تبدو أصفر كورقة خريف!

سألته:

– وذهبت إلى بيت اليوسين؟

تضبب نظره قليلا:

– لا، هي التي جاءت إليّ، يبدو أن العجوز، جزاها الله خيرا، قد قامت بالواجب، كما ينبغي، جاءت صحبة خماسهن...

تذكرت إبراهيم الخماس، قد يكون مات، كم ساعدنا هذا الرجل الطيب، أنا وأختي:

– إبراهيم مازال حيا؟

قال:

– وقويا كفيل، طيبا كشاة!

فكرت بصوت عال:

– قد يكون تجاوز السبعين!

عاد الحسين إلى عائشة:

– فلما رأتني في تلك الحالة بكت كثيرا وأمرت الرجل الخماس بحملي إلى "البيت الخالي"...

استفسرته:

– البيت الخالي، لا أذكر بيتا بهذا الاسم؟

قال وهو يعبث بلحيته:

– هو البيت الذي عزل عمك فيه نفسه قبل أن يموت، كان قد أصيب بمرض معد في الكبد هو الذي قتله، يقال، ولكنه مع ذلك وجد مشنوقا، فيقال بأنه من عمل بعض الفدائيين غير أن لا أحد يملك تفسيرا لشنقه، الغالبية تقول إنه مات بذاك المرض الخبيث، المهم أن عائشة أمرت بتنظيف البيت، وقد كان مطليا بجير نقي، وأسكنوني هناك، واعتنوا بي عناية لا أستطيع أن أتصورها، أن أصفها لك، وكانت عائشة تأتيني أكثر من مرة في اليوم، صحبة الخماس إبراهيم وتلك المرأة العجوز، التي يسمونها "أمي طم"، تطعمني عائشة، ينظفني الخماس، وتشربني العجوز سوائل من أعشاب برية، لم أذق أمر منها، مع أنها كانت تمزجها بالعسل، وتدلك صدري بالبصل الأحمر وزيت الزيتون، تظل تدلك فيخرج نوع من الذود منه، يخرج ميتا من صدري!

استغربت:

– ذود من صدرك؟

تابع وهو يمسك بلحيته بين أصابعه:

– ذود، رأيته بأم عيني، في كل مرة كنت أراه وأمي "طم" تصرخ:

– اخرج، ياعدو الله، ياكافر، اخرج من صدر هذا المؤمن الطيب!

بقيت على تلك الحال شهورا إلى أن قالت لي العجوز، ذات زوال:

– ابتداء من هذا النهار يمكنك أن تخرج من هذا البيت، تشم الهواء، تتمشى قليلا، تعرض جسمك للشمس ولكن بمقدار، ودائما تحت المراقبة!

صارت عائشة هي التي تقوم بهذه المراقبة. تخرجني لأجلس على دكة بابه وتدخل هي لتنظيفه. وصارت، منذ هذا الوقت، تأتي معها واحدة من أخواتها لمساعدتها. تنتهيان من تنظيف البيت وتجلسان معي، كل واحدة من جهة، نتبادل الذكريات وأطراف الحديث وغالبا ما كان يرد ذكرك.

سألته:

– ذكري، بأية مناسبة يرد ذكري؟

ظل ممسكا بلحيته:

– تتأسف البنات، خاصة عائشة، على كل ما وقع لك ولأختك، وتبكي في أغلب الأحيان وهي تردد: عقل الصغر، يلعن بوه، ما كنا نقدر

أنهما من لحمنا ودمنا، وأمي رحمها الله كانت جاهلة، تحرضنا عليهما، ولا تكف عن ملء قلب والدي بالحقد عليهما، والدي كان ساذجا، خفيف العقل، رحمة الله عليه، ماذا كان سيضرنا أن يبقيا معنا، يكبران معنا ونكبر معهما، وها نحن الآن في حاجة إليهما من غير أن نقدر على استردادهما!

وتبكي فاطمة أختها بدورها وهي تقول:

– لو بقي محمد معنا، لو عاد إلينا، لجعلناه رجلنا، سيدنا وأخانا!

لماذا أحسست، في هذه اللحظة بالذات، أنه ربما كان يبالغ وأنه، في نفس الوقت يخفي عليّ شيئا، أو يجد صعوبة في قوله:

– لا أستطيع تصديق ما تحكي!

حرر لحيته من أصابعه:

– ومع ذلك يجب أن تصدق فأنا لا أقول لك إلا الصدق، صدق!

– هذه الشريرات يصدر عنهن مثل هذا الكلام، غير معقول، قلت مستنكرا!

عاد يمسك بلحيته:

– وأكثر من هذا!

فوجئت:

– أكثر من هذا، ماذا أكثر من هذا؟

نظر إلى عينيّ وهو لا يزال يمسك بلحيته:

– لقد طلبن مني، لما علمن أنك معي كل هذه المدة في الدار البيضاء، أن أستعطفك بخصوص أمرين: الأول، أن تسامحهن، وتسامح الموتى، الثاني، أن ترجع لتعيش معهن في البلد، أو على الأقل أن تصل معهن صلة الرحم!

لم يحول عينيه عن عينيّ ففعلت مثله:

– أما المسامحة فالله يسامح، دنيا وآخرة، وأما صلة الرحم أو العودة إلى البلد فمستحيلة!

مازالت عيناه في عينيّ ولكن فيهما لطف يشبه الدمع:

– لماذا تسد عليك وعليهن أبواب الرحمة والمودة؟

خلصت بصري من عينيه. نظرت إلى صدري كأني أبحث فيه عن شيء:

– أشعر بأني إن عدت سيزداد شعوري بالمهانة والذل!

ابتسم ابتسامته الطيبة:

– مخطيء، هاأنا أمامك، لعلك تذكر كم عانيت من القسوة والإذلال، ولكني بمجرد رجوعي إلى البلد شفيت من مرض كان سيقتلني لو بقيت في الدار البيضاء، واسترجعت أهلا إضافة إلى كل ذلك!

انتابتني بعض الحيرة:

– وماذا تبقى لي في البلد، ألم يبدر عمي كل شيء؟

مازال يبتسم:

– وفي هذه أيضا أنت مخطيء، وإن كان لزوجة عمك من حسنة تحسب لها فهي في هذا الأمر: لقد تواطأت مع الخماس إبراهيم، الذي زوجته أختها، واستطاعت أن تنقذ أكثر من نصف ممتلكاتكم من عبث اليوسين!

كأني أحسست ببعض البهجة:

– صحيح، صحيح ما تقول؟

اتسعت ابتسامته:

– بماذا تريد أن أقسم لك؟ والله العظيم!

ثم توقف قليلا قبل أن يتابع وفي عينيه شيء من النور:

– ثم إني صرت واحدا من العائلة، عضوا كامل العضوية، لقد خطبت فاطمة، فلِمَ لا تخطب أنت عائشة، مثلا؟

ركبتني موجة من الغيرة، أو الغضب، لا أدري بالضبط، ولكني قلت:

– لا تنسَ أنك منذ صغرك واحد منا، من العائلة دائما!

وصار صوته أرق:

– وكم ستكتمل هذه العائلة، وتسعد، بعودتك إليها!

تذكرت، كأني أهرب، حكاية الحانة:

– ثم إني اشتريت، بشراكة مع الركجوني صاحب المقهى، حانة!

اكتفى بالسؤال وقد أظلمت عيناه فجأة:

– حانة؟

أكدت كمن يؤكد لنفسه:

– كما سمعت: حانة ومطعم!

وتوقف الكلام بيننا كأن موجتين مختلفتين جرتا كل واحد منا في اتجاه ولكن كان في موجتي دوار يشبه ثقب ريالي!

# 31

أيكون الحسين الذي أخبرني لما أكثرت السؤال عن سعيد:

– لا تخف على سعيد، سعيد عفريت يمكن أن يتحول من "زنديق" إلى "ولي الله"، أو العكس، بدهاء لا يضاهيه فيه أحد، سعيد ابن الشارع، تربّى مع القطط والكلاب، يعرف مثلها كيف يختفي أو يظهر، كيف يتنكر، لا تخف عليه!

ولعلني ألححت عليه حتى أضاف:

– سعيد في مهمة، سيغتال بعض الخونة، يفجر بعض القنابل في الأسواق، ويحرق بعض المزارع والبيوت، ثم يعود زنديقا كعهدك به، لا تخف، قلت لك!

من غير الحسين يمكن أن يخبرني بأمر كهذا؟ قد يكون الحسين هو الذي تابع ليطمئنني أكثر:

– هل تعرف أنه تنكر، مرة، في ثياب امرأة وأخذ يستعرض نفسه في الشوارع حتى حسبه الجميع امرأة بالفعل وكم من رجل حاول اصطياده حتى تحرش به أحدهم بالعنف فاضطر سعيد ليكشف عن هويته ولكن بعد أن أشبع الرجل ضربا وركلا، والرجل غير مصدق إذ يصرخ وسعيد يضربه:

– شاذ، امرأة شاذة!

أتصور أني ضحكت وقلت:

– مجنون مسخوط الوالدين!

فعلق الحسين:

– تقصد أن والديه هما مسخوطا ابنهما؟

أما ترى أن زهور، التي لا تكف عن السؤال عنه، هي التي أخبرتني بذلك؟ كانت تقول في البداية إنها حامل منه:

مرة تدعي:

– حامل من سعيد منذ أربعة أشهر!

وقد تزعم بعد ذلك:

– أنا حامل منه منذ ثلاثة أشهر!

أو تكتفي بالشكوى:

– لا أريد لهذا الجنين أن يكون، مثلي، بلا أب، قد أضطر إلى الإجهاض!

ثم مرت الشهور الكثيرة وهي تسأل:

– هل تعرف متى سيعود؟ ليته يعود سالما متى استطاع!

تذرف دمعتين ثم تضيف:

– ما رأيك في أن نغني إكراما لذكرى سعيد؟

وأسألها غير مصدق:

– هل تحبينه حقا؟

فترد حزينة:

– إنه مثل أخي، شقيقي، لأنه ازداد مثلي في الشارع وكبر فيه!

وأكرر سؤالي عدة مرات:

– صحيح أنك ولدت في الشارع وتربيت فيه؟

فتمتنع عن الجواب في كلّ مرة وهي تقول باسمة ابتسامة صفراء:

– حرك الكمنجة واتركني أبكِ معها، حرك!

ولكني أضيف إذ كبر فضولي:

– سعيد لم يزدد في الشارع ولكنه كبر فيه!

فتنهار أخيرا:

– ازددت فيه وكبرت، فحرك الكمنجة، حرك، أخويا، الله يخليك!

أحاول أن أستغل لحظة ضعفها:

– وهناك تعلمت... أقصد الغناء؟

فترد:

– كل شيء، بما في ذلك الغناء، فلا تحرك الكمنجة، سأغني دونها!

وأتصور أنها كانت، مثل سعيد، تغني، في صغرها، مثل ذلك الغناء الذي كان يغنيه، كل ليلة، لينام، ليطرد أشباح الشارع، ليحتمي به حتى يستطيع أن ينام، فأقول لها:

– الآن، أيقنت بدوري لماذا أحاول أن أتعلم الكمان، هيا غني، لنغنِ!

لا يمكن لسعيد، إذا كان في مهمة حقا، أن يخبر هذه المرأة الهشة، القوية الضعيفة، بسره، لأنها لا تخلو من سذاجة ولأنها تشتغل مع النصارى!

وعلي الركجوني؟ الركجوني لا يمكن أن يسأل عنه فهو لا يحبه، من جهة، ولا يعرفه بما فيه الكفاية، من جهة أخرى، كأنه زبون تردد، بعض المرات، على المحل ثم غيره بمحل آخر ثم إن الركجوني قد انخرط، بكل ما يملك من قوة وحماسة، في إعداد الحانة والمطعم الجديد. يريد أن يجعله أرفع مكان في المدينة يؤمه علية القوم من كل الأجناس والديانات.

أثناء هذا ظهر سعيد من جديد. فرحت بذلك وقلت:

– أخي الثاني سيقف جنبي ويساعدني!

لكنه عاد زنديقا كما كان في بدايته. أصبح عالة عليّ وعلى زهور. يأتي إلى الحانة ليسكر، مجانا، حتى يفقد عقله، يحكي لنفسه ويغني، ثم يطلب خمرا زيادة ليأخذه إلى البيت.

البيت، قلت؟ سكن مع زهور وكان يضربها حتى القتل إذا لم تمنحه مصروف الجيب كل يوم:

– هل انتكس سعيد من جديد أو تراه يمارس تقية أخرى؟ وإذا كان في الأمر تقية فمع من: مع البوليس، إذا صح أنه كان في مهمة، كما زعم الحسين، أو خيل إليّ، أو مع نفسه، إذا صح أنه انتكس بالفعل وعاد إلى أسوء مراحل طفولته؟

أحيانا، كان يشاهد سعيد، صحبة زهور، وهما يتنزهان، عشية، في أزقة وشوارع المدينة الجديدة، يمشيان بهدوء وتؤدة، سعيدين، كخطيبين، أو زوجين، ولكن سعيد، من فرط طول زهور، يبدو كمراهق يمشي ممسكا بذراع أمه، خائفا من أن يضيع. لقد قال لي الركجوني مرة، بعد ضبطهما، في أحد الشوارع على تلك الحال:

– لأمر ما يتمسك الزنديق سعيد بذراع الفاسدة زهور!

أصبحت أكثر وحدة إذن: لا الوالد معي، ولا الحسين، ولا سعيد، ولا أكمى. فهل لهذا فكرت في البلد؟ أعود إليها؟ لماذا ؟ لأرعى بنات عمي

وأرضهم؟ وأملاكي التي تتوسع في الدار البيضاء؟

في غمرة هذه الأسئلة تذكرت ريالي المثقوب. لا يزال في مكانه. لقد أعطيت مالك الحانة القديم كل ريالاتي إلا هذا الريال. هذا الريال أعطته لي جدتي فاضم، والدة أمي، التي ماتت من المجاعة، كما مات كل أخوالي وتشتت شملهم.

هذا الريال هو كل بلدي، بلدي المثقوب، ولكنه بلدي، حتى أني لما بدأت تكثر ريالاتي حلمت بأنه يبيض ذهبا في الليل، كل ليلة يبيض بيضة من ذهب، يبيض من ثقبه، وكثر بيضه وتراكم على بعضه حتى أصبح لي منه جبل!

# 32

الدنيا هشة وقوية، ذابلة ومشعة، مثل زهور، وغامضة ومرتبكة، قاسية ولطيفة، مثل كاترين. وكذلك أصحابي بما فيهم الرجل الذي صرنا نسميه الوالد: علي الركجوني!

توفي علي الركجوني قبل أن نفتح المحل الجديد: مطعم ومقهى تبادريست الجديد!

مات وحده في شقته ولم تكتشف جثته إلا عندما شم رائحتها النتنة أكثر من واحد من الجيران، من بالكونه شمت الرائحة، في البداية، ثم انتقلت إلى كل العمارة ثم وصلت إلى الشارع: انتحر الركجوني، شنق نفسه، أم قتلوه؟

وجدت، في أحد جيوبه، رسالة تتهمه بالخيانة العظمى ولكنهم، لما فتشوا شقته، وجدوا فيها أنواعا مختلفة من الأسلحة!

لم يكن للركجوني أعداء معروفون ولا كان يظهر كراهية للفرنسيين: فلِمَ انتحر، إذا لم يكن هناك شك في انتحاره؟

لم يكن للركجوني زوجة ولا ولد ولا بنت. كان معروفا بصحبته للنصرانيات واليهوديات، لكل النساء الجميلات، الفاتنات الأجنبيات. كان يقول:

– أترك كل هذه الطيور الساحرة التي تهاجر إلى الوطن، طلبا للمتعة والطعام، وأجلب لي دجاجة تعصبا للبلد، من أجل عيون البلد؟ أحب بلدي ولكن الطعام الأجنبي أشهى وألذ، الله يسامحني، سامحني، ياربي، أنت سبحانك عالم بالحال!

وقد تكون وراء كل ذلك حكاية ما لا يعرفها أحد، حكاية مثل حكايتي أو أفظع، حكاية جعلت منه أكبر المعمرين من بين العزّاب ولكنه كان أفضل الآباء العزّاب، أبانا الذي آوانا، ورعانا، وشغلنا وورثنا:

– هذا الحسين هو ابني العاصي، زكاة العائلة، ولكن رجل، أحسن من مئة رجل، أما محمد فابني البار، الله يرضي عليه، ويحقق له جميع ما نوى، يردد على مسامع الناس، حتى يتابع مسيرة تاركجونت في الدار البيضاء، ويظل جامعا شملها، هنا في كازا، رافعا علمها!

وكم كانت مفاجأتنا، ومفاجأة الناس جميعا، عظيمة، حين اكتشفنا أنه أهدى للحسين المقهى القديمة، وأهداني نصيبه من الحانة الجديدة، بينما جعل الشقة مناصفة بيني وبين الحسين. كل ذلك موثق بشكل رسمي عند موثق فرنسي!

كم كان فقده عظيما، مروعا، عند الجميع. بكته النصرانيات، واليهوديات، والمسلمات، ومن لا ملة ولا دين لهن!

أي سر، في حياة هذا الرجل، يجعل كل هؤلاء الناس يبكونه، لا يكفون عن ذكره والترحم عليه؟

يشاع أنه كان لديه كل ما يجعله يشبه الحمار في الفراش بالإضافة إلى أنه كثير السخاء مع النساء وأن هذا " الحمار" الذي فيه هو سبب إكثار زوجته الأولى والأخيرة، بنت خاله، بالحلم بـ"جاك" لأن جاك كان يشبه فرخ دجاج رومي!

ولكن هل يعقل أن يبكيه كل هؤلاء القوم؟ وهل يكفي ذلك لتفسير أنه كلما ذكر، شهورا بعد موته، تتبادل بعض النساء الغمز، وكذلك بعض الرجال، ومنهن من تنخرط في موجة بكاء، أو تتوقف عن الأكل، تفقد الشهية للطعام والكلام!

كان من حين لآخر يمزح مع الحسين:

– جاهدوا في "الكفّار" بكل ما تستطيعون ولكن لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة!

ماذا كان يحاول أن يقول للحسين، وهو يرفع صوته عاليا، كي نسمعه جميعا؟

يرد عليه الحسين:

– واستعينوا على أعمالكم بالكتمان، أعمي علي!

هل كان الحسين هو حامل سره؟ و لم لم يشركني فيه؟

يجيبني الحسين:

– والدنا، رحمه الله، كان يعرف لأي شيء يمكن أن يصلح الواحد منا بمجرد إلقاء النظرة الأولى عليه!

قلت لأستزيده:

– ولكنه لم يطلعني على أي سر، بينما أنت...

رد ضاحكا:

– يا شاطر، ماذا قال لك وهو يدفع بك إلى القبو ويكلفك بنظافة المحل؟

حاولت أن أتذكر:

– لمعلم الحقيقي يبدأ مع العمال من الصفر...شيء من هذا القبيل!

تحولت ضحكته إلى ابتسامة:

– و لم ترَ في هذا أي سر، أية علامة؟

قلت مستغربا:

– سر، علامة، لم أرَ شيئا!

قال وهو لايزال يبتسم:

– فكر، تستطيع أن ترى السر أو العلامة الآن!

زدت حائرا:

– والله، لا أفهم!

قال:

– لماذا، يا ترى، اختار أن يورثك نصيبه من الحانة الجديدة، ولماذا ورثنا مناصفة، بيني وبينك، شقته؟

ازداد ذهني غموضا:

– ترى أنت في هذا الأمر سرا أو علامة؟

قال حاسما:

– بكل تأكيد، ولو أمعنت فيه النظر...

ألححت:

– ولماذا لا تكشف لي عن هذا السر وتريحني معك؟

قال:

– لأن سري مختلف عن سرك ولأني لا أستطيع أن أنوب عنك في قراءة نفسك كما رآها والدنا، رحمّه الله، والآن سامحني عندي موعد هام!

وخرج تاركا مخي يدور في كل الاتجاهات بحثا عن علامة: أبي كان تاجرا مثله!

وجاء صوت امرأة يسألني:

- هل صحيح ما يشاع عن علي الركجوني من أنه دفن وعضوه منتصب؟

قلت لتلك المرأة، التي لم يكن قد مضى على قدومها إلى الدار البيضاء سوى أسبوع:

- هذا الانتصاب الدائم هو الذي جعله ينتحر!

شاهدت دمعة لطيفة في عينيها وهي تقول:

- مع الأسف، حرام!

لم أفهم قصدها ولكني تذكرت صورة الفقيه، الذي كان يغسله ويهيئه للدفن، وهو يصرخ في وجه المعزين:

- تعالوا ساعدوني، إنه لا يتوقف عن الانتصاب!

فاتفق الجميع على إكرامه بدفنه ولينظر الله في أمره كما يشاء: هكذا ولدت أسطورة " الحمار الدائم الانتصاب" وأخذت تتضخم وتتوالد، كل واحد يضيف إليها، أو ينقص منها، من عنده، الأسطورة التي تسيل لعاب الكثير من النساء كما تخيف، أو تهين، العديد من الرجال!

كثرت التعليقات ولكن تعليق زهور بدا لي الأفضل:

- كان يريد أن يكرم امرأة أخرى قبل أن يدفن ولكن الفقيه لم يفهم سره!

إنه التعليق الوحيد الذي يوافق روح الكرم والإيثار عند والدنا العظيم!

# 33

انتقلت صحبة الحسين إلى تلك الشقة الجميلة، الفسيحة، التي يدخلها النور والهواء الكثير من جهتين، قلت للحسين:

– لن تمرض بالسل من جديد، استمتع، يا سيدي، بالهواء والنور، ولا تكف عن الترحم على أبينا!

من ذلك الوقت ونحن، عندما نتحدث عنه، نقول: الوالد الله يرحمه!

ولكن الحسين لم يستمتع بالنور والهواء طويلا. لقد أجبر على العودة إلى القبو، قبو أفظع من الذي كنّا نسكن من قبل: جاء البوليس، قبل طلوع الفجر، وأخذوه مكبلا من الشقة. بعدها فقط انتشر الخبر اليقين علنا: الحسين فدائي، يقاوم مع الفدائيين منذ زمان طويل؟ ألهذا كان الوالد خائفا عليه قبل ذلك؟

فتحت الحانة الجديدة، بعد معاناة طويلة مع الأمن، وبدأت أشتغل فيها على طريقة والدنا في المقهى القديمة وكنت في نفس الوقت أراقب الشغل في هذه الأخيرة: عمل كثير، مضنٍ، لا يترك لك الوقت حتى لما يكفي من النوم والراحة!

ولكن متعة العمل، وكثرة الدخل، والمفاجآت، والطرائف، وحتى المصائب، كانت كثيرة ولا تترك الوقت للتفكير في الراحة. ومن أجمل المصادفات أن زبائن كثيرين، من المقهى القديم، أصبحوا يترددون على مقهانا الجديد. وكان من بين هؤلاء سيدة فرنسية، في الأربعين من عمرها، تأكل قليلا وتشرب كثيرا، ولكنها تظل محافظة على وقارها بشكل غريب. طلبتني هذه السيدة، في وقت متأخر من الليل، وسألتني:

– أنت من خلف علي في هذا المكان؟

قلت:

– الله يخرج الأمر بخير!

قالت:

– أنا مرة في الأسبوع لا أؤدي، أشرب وآكل ثم أنصرف إلى بيتي من غير أن أؤدي الثمن نقدا!

قلت:

– مرحبا بك، يا مدام، المحل محلك!

قالت:

– لم لا تفعل معي ما كان يفعل معي علي؟

قلت:

– ماذا كان يفعل معك المرحوم؟

قالت:

– كان يأخذ مني المقابل عينا!

قلت:

– معذرة، لم أفهم!

قالت:

– كان يعفيني من الأداء، مرة في الأسبوع، كما قلت لك، ويصطحبني إلى بيتي، ينام عندي ليأخذ الثمن عينا!

أحسست بالخجل لكنني قلت لها:

– ونحن على سنة الوالد، سنختار لك يوما على طريقته!

قالت لي:

– تمزح؟

قلت:

– لا، والله!

قالت مبتهجة:

– أنا كنت أمزح معك، ما مات من خلف، تعال قبلني!

ومددت وجهي نحوها لكنها قبلتني من فمي!

ومن المصائب أن زهور قد وضعت في ذهنها أنها يجب أن تأتي للغناء في المقهى الجديد لدعمنا:

– سأغني لكم بالمجان حتى تكبروا وتسمنوا!!

كيف نتجنب، نجنب الناس، أغانيها الساقطة، كيف، يا ربيّ، كيف؟

وجاءت الليلة التي حددتها لدورها. كيف أوقفها؟ كيف أجنبها الكارثة؟ صعدت إلى المنصة الصغيرة صحبة عازف عود:

– الله يستر ويخرج العاقبة بخير، أقول في سري. دندن الرجل قليلا بينما هي تتفحص الزبناء بعينين مضطربتين. كان أغلب الزبناء، كالعادة، من الأجانب، والكثير منهم قد أتم عشاءه ودخل مرحلة الشرب الزائد. شرعت زهور في الغناء:

– هاك شرمل هاك بالململ!

علا الضجيج والصراخ من كل أنحاء المحل وبدأت الكبسولات والفلينات تتساقط على رأس زهور وصاحبها عازف العود، من جميع الجهات، حتى العمال ساهموا في ذلك، تضامنوا مع الزبناء:

– الله يستر ويخرج العاقبة بخير، أردد متوترا، عاجزا!

خيل إلي أن هذه اللحظة قد دامت دهرا كاملا، أنها نهاية تجارتي:

– الله يرحم السي علي ويجدد عليه الرحمات، مشروعه مات، هاك بالململ، أسيدي علي، هاك شرمل!

تجاوز شعوري الخوف إلى الخجل ثم إلى العار!

ولكن زهور ظلت صامدة في مكانها، صحبة العواد، الذي بدا لي شبيها بتمثال رجل مات على صدر عوده، ثم انحنت على أذن العواد وهمست له بشيء، قلت:

– ستخرب المحل، لم تصر على متابعة الغناء، على خرابي؟

وشرع العواد في العزف من جديد. بدأ يتبين تدريجيا أنه يعزف شيئا لفريد الأطرش ثم دخلت زهور على الخط:

– بساط الريح...

لقد نجح العواد في إثارة انتباه الكثير من الزبناء ولكن زهور أسكتت الجميع وسيطر صوتها، تدريجيا، على القاعة بأكملها، حتى العمال توقفوا عن العمل، حيث كانوا، عندما بدأ صوتها يعلو:

– من أين لها بهذا الصوت القوي، ولكنه حزين، ذو البحة، ولكنه يطرب، من أين لها بكل هذه الطاقة على الإتقان: لقد أخرست كل الحاضرين، مغاربة وأجانب!

تذكرت قولها:

– ازددت وكبرت في الشارع، تعلمت كل شيء من الشارع!

وعلا التصفيق والهتاف. أتمت بساط الريح بسلام، بنجاح. وهاهم، الذين هتفوا ضدها، في البداية، يستزيدونها. غنت بالفرنسية ثم بالإسبانية. هي تغني والعواد يتفنن في العزف والحضور يهتف، أو يرقص.قلت لنفسي:

– أخرجتهم من دائرة العقل، أوصلتهم إلى الجنون!

وفجأة تعلن بأعلى صوتها:

– والآن، أيها الحضور المتميز، الذوّاق، صفقوا معي على عازف الكمان الكبير، محمد الشلح!

كما فوجيء الحضور بهذا الإعلان فوجئت به بدوّري: بقيت هنيهة أتصور أنه يتعلق بشخص آخر غيري. ولما استرجعت وعيي وصعدت إلى المنصة، بينما الحضور يصفق ويهتف، قلت لها:

– حرام عليك، تورطينني؟

قالت لي:

– كان يجب أن تبدأ في يوم من الأيام، هذا يومك قبل أن تموت!

وتوجهت إلى الزبناء:

– والآن حان موعد السهر مع السيدة أم كلثوم!

لم أكن أتصور أنّ الأجانب يطربون لأمِّ كلثوم. صمت مطلق. من حين لآخر يسمع كأس أو زجاجة، يضاف الصوت إلى العود والكمان وتألق زهور. فكرت وأنا أعزف، أحاول أن أوصل صوتها إلى كماني:

– كل هذا من الشارع، يا بنت الحرام؟

ثم أضفت:

– وهناك، في المرقص، لا تغنين غير هاك شرمل هاك بالملل؟

لما أتمت أغنية أمِّ كلثوم التفتت إليّ:

– أتركها في العز، سأغادر، هذه فرصتك، تابع وحدك!

وأشارت إلى العواد فوقف ثم توجهت إلى القاعة:

– شكرا على كرمكم، وأدبكم، وحسن لياقتكم، أنتم جمهور نادر، ومتميز ولكن صوتي قد تعب!

علا الهتاف والصفير: يريدون المزيد!

قالت:

– ستستمعون، إلى فنان نادر، خجول، لكنه مبدع: إنه محمد الشلح!

نزلت توزع الابتسامات بينما الزبائن يتنافسون على دعوتها إلى موائدهم. كان سعيد جالسا، نصف سكران، إلى طاولة صغيرة، كنا خصصناها له، في ركن قصي، لكي لا يكثر من إزعاج الزبناء. جلست جنبه. قال:

- كنت رائعة!

قالت:

- نستمع إلى الشلح!

عزفت، في البداية، قطعة لموزار ثم أخرى لاستراوس الأب ثم ارتجلت كشكولا من أغاني مختلف مناطق المغرب.

صارت هذه النمرة تطلب مرتين في الأسبوع، كلما انتهت زهور من الغناء!

- الدنيا مليئة بالمفاجآت، كلها تقلبات، أغلبها غير محسوب، يقول علي الركجوني، والدي رحمة الله عليه!

# 34

بعث إليّ الحسين برسالة شفوية من سجنه. لقد حكم عليه بالمؤبد:

– المهم أنه مازال حيا، أردد لأطمئن نفسي وأعزيها!

طلب مني أن أحضر فاطمة لتعيش معي في نصيبه من شقة الوالد. أرسلت في طلب فاطمة وعائشة. وصلتا، صحبة إبراهيم الخماس، بعد شهر من الانتظار. فاجأني الخماس:

– أنا والد البنات، يا بني!

قلت:

– تستحق جزيل الشكر على رعايتهن، لقد كنت لهن أكثر من أب!

تردد قليلا ثم أضاف:

– أنا الوالد الحقيقي، أبوهن دما ولحما، لقد كان عمك عاقرا!

كدت أجن:

– ولكنك زوج أخت زوجة عمي، الجمع بين الأختين...

سبقني إلى الكلام:

– لم أقرب أختها إلا بعد موتها، موت زوجة عمك رحمها الله!

ازداد جنوني:

– والبنات على علم بهذا؟

نادى على فاطمة وعائشة. قالت عائشة:

– الحقيقة هي ما حكى لك!

شعرت أني تورطت في مصيبة:

– وإذا كان يكذب عليكن؟

قالت فاطمة:

– غير ممكن، أمي هي التي أخبرتنا بالحقيقة وهي تحتضر، كل البنات سمعن قولها ويعرفن هذا الأمر، أما هو، إبراهيم، فلم يعترف به سوى للحسين، الحسين الذي أخبرنا به من جديد...

الحسين مرة أخرى:

– كيف عرف وبأي دليل، أو حجة، أقنعهن؟ أو لهذا يكون قد طلب يد فاطمة؟

الواقع أن ذلك الخبر قد أفرحني، من جهة، لأن مسلسل الذل الذي بدأه اليوسين قد انتهى بموته، وأحزنني، من جهة أخرى، لأن عمي لم يكن يمثل أي شيء حقيقي، أو أصيل، حتى "حمله" أصبح حملا كاذبا و لم تعد هناك أية إمكانية للشك في عقمه!

أثناء كل ذلك كان خبر أهم قد شاع في البلاد طولا وعرضا وملأ قلوب الناس فرحة وزهوا: الاستقلال الشامل ورحيل المستعمر مهزوما!

إذن سيخرج الحسين من الحبس، سنتغير من جديد. لكن سعيد تغير قبل ذلك التاريخ، بمجرد تأكده من الخبر المهم: جاء إلى الحانة وطلب أن يشتغل في المطعم. قلت له مازحا:

– صدق الحسين، أنت قط، أو كلب، شارع بسبعة أرواح!

وقال لي مازحا بدوره:

– وأنت كلب مغارات بمائة ريال ذهبية، ولقد خطر لي، ذات ليلة، أن أسرق منك ريالك المثقوب، ولكن الحسين نهاني عن ذلك!

استفسرته باسما:

– ماذا قال لك الحسين حتى لا تسرقه؟

قال:

– قال لي: هذا الريال يبيض، فلا تحرمنا من بيضه الذي سنأكله ذات يوم!

قلت:

– صحيح؟ وكان يعرف أين يوجد ريالي؟

قال:

– تماما، وأنا اعتقدت، والله الكريم، في أن ذلك الريال يبيض بالفعل!

ضحكنا حتى أثرنا فضول الزبائن والمساعدين فقلت له:

– اسكت، اسكت، قد يتنبه غيركما إلى مكان هذا الريال فيسرق منا بيضه، اسكت!

وانخرطنا في الضحك المدوي من جديد. لقد صرنا سعداء وستكتمل سعادتنا قريبا بالحسين الذي خرج من السجن إلى المستشفى!

ومن جهته، حاول إبراهيم، من جديد، أن يساهم في هذه السعادة. التحق بي في الحانة وطلب أن يخلو بي. قال:

– سأعود إلى البلد!

لماذا يريد أن يعود إلى البلد في هذا الوقت بالذات؟ سألته:

– نحن لم نشبع بعد من حضورك والدنيا كما ترى قد تغيرت نحو الأحسن فلم لا تبقى معنا، تؤنسنا ونشم فيك رائحة البلد، حتى نقتل الشوق إليه؟

أجاب:

– ليتني أستطيع، في البلد تنتظرني الكثير من الأشياء: البنات، الأرض، والبهائم.. تعرف؟

حاولت، بكل قواي أن أثنيه عن السفر، أن أجعله على الأقل يؤجله لكن دون جدوى فقلت له مرغما وبكثير من الأسى:

– لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

لكنه بدا حائرا فسألته:

– ماذا يقلقك أو يحيرك؟

تردد ثم ردّ:

– عائشة!

فاجأني:

– عائشة، مالها؟

لم يتخلص من كل حيرته:

– لا أستطيع أن أتركها هكذا.

لم أفهم، طبعا:

– إنها مع أختها، مع فاطمة وفاطمة في بيتها!

قال:

– ولكنها معك أنت كذلك!

أكدّت ببراءة:

– طبعا، معي أنا كذلك!

قال:

– وبأية صفة تبقى معك؟

ها إبراهيم الماكر يكشف عن وجهه:

– ما تعني، أعمي إبراهيم؟

أصبح صوته حادا:

– قل أنت، قل لي لماذا طلبت عائشة مع فاطمة؟

أسقط في يدي:

– الحسين هو الذي أمرني بذلك!

ابتسم هذه المرة:

– يا بني، الحسين لم يطلب منك غير إحضار فاطمة لأنها زوجته!

صحيح، كيف غاب عني ذلك: لماذا طلبت أن تحضر عائشة صحبة فاطمة؟

قال وقد عادت إلى صوته تلك الحدة:

– تتزوج عائشة أو أرجعها معي إلى البلد!

آه، كم دوخني هذا الأمر. قلت:

– شوف، أعمي، أمهلني لكي أفكر في الأمر، والله ما خطر على وعيي شيء منه من قبل!

وأمهلني إبراهيم أسبوعا كاملا. لاحظت أن عين سعيد تزداد اهتماما بعائشة:

– كيف يمكن لسعيد أن ينتقل من زهور إلى عائشة؟

وفكرت أكثر:

– كيف يمكنني أن أنتقل من كاترين إلى عائشة؟

وأنا خلف الكونتوار أرتب أشياءه سمعت صوت الصبي:

– مرحى، سيدي محمد!

لم يكن بإمكان أحد أن يرى هذا الولد الصغير:

– ماذا تريد مني، يا صبي، أكثر من هذا، ألم أكتب قصتك كما شيئت ورضيت؟

ابتسم لي بلطف كبير:

– بقي أمران: الأول، ألا تنسى بأننا كتبنا كل هذا لنتصالح، أنا وأنت، ونقضي بقية العمر في أمن وسلام...

وسكت:

– لم أنسَ هذا بعد، الأمر الثاني، قل؟

قال:

– الأمر الثاني، أن نتعلم معا كيف ننتقل مني إليك وكيف ننتقل منك إليّ، لكي يكتمل السلام حقا بيننا، وألا تغضب عندما نكون معا، مندمجين في لحظة واحدة، أو مفترقين في لحظة أخرى!

جاء الصبي في اللحظة المناسبة:

– عمي إبراهيم، نكتب عقد قراني بعائشة، قبل أن تسافر، ونؤجل الزفاف إلى حين خروج الحسين من المستشفى!

قال:

– بشرط واحد، واحد فقط!

قلت:

– اشترط ما تشاء، أعمي إبراهيم!

قال:

– تعطي ريالك المثقوب، ريال جدتك، مهرا لعائشة!

لقد حل لي مشكلة عويصة من غير أن يدري: هذا الريال ورثته جدتي عن جدتها ويلزمنا امرأة ترثه وتورثه بدورها فمن يمكن أن تكون غير عائشة؟ قلت للعم إبراهيم:

– على الراس والعين، يا عمي!

اكتفى بابتسامة لطيفة جعلتني أطيل التأمل فيه فوجدته أشبه بالصبي الذي كان معي بالكونتوار، والذي ألح عليّ لأكتب هذه الحكاية، ولكن الصبي كان يشبه والدي كذلك: نفس الوجه، نفس اللطف، نفس الطول، والابتسامة، والجد، أو الاستقامة، وعزة النفس، فهل يحتاج بدوره إلى حكاية عن طفولته، أو أن ما رويت يصدق عليه كذلك، أو تراه يفضل أن يبقى حاضرا في الظل، مثل شجرة أو بئر أو جبل، كما فعل طول حياته، تاركا لنا مهمة الطير والأنهار والسحاب؟

# المؤلف في سطور

**الميلودي شغموم**

– روائي مغربي.

– صدر له عن دار العين:

"الليالي القمرية" رواية، القاهرة، 2010.

**روايات أخرى للمؤلف**

– "الضلع والجزيرة"، روايتان، دار الحقائق، بيروت، 1980.

– "الأبله والمنسية وياسمين"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982.

– "عين الفرس"، دار الأمان، الرباط، 1988، ط2، 2005، الترجمة الفرنسية، ولادة، الدار البيضاء، 1993.

– "مسالك الزيتون"، منشورات السفير، مكناس، 1990.

- "شجر الخلاطة"، مطبعة المحمدية، 1995، الطبعة الثانية، دار الأمان، الرباط، 2000.
- "خميل المضاجع"، مطبعة المحمدية، المحمدية، 1997.
- "نساء آل الرندي"، دار المناهل، الرباط، 2000، جائزة المغرب للإبداع، اقتبس منها فيلم تلفزي، ترجمت أجزاء منها إلى الألمانية والإسبانية.
- "الأناقة"، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001.
- "أريانة"، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2004.
- "الأعمال الروائية الكاملة الأولى"، 3 أجزاء، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 2005.
- "المرأة والصبي"، دار الأمان، الرباط، 2006، ط3، قصور الثقافة، القاهرة، 2010.
- "فارة المسك"، الريشة السحرية، مكناس، 2008.
- "بقايا من تين الجبل"، دار الحوار، اللاذقية، 2009.
- "طوق الإيلاف"، دار الحوار، اللاذقية، 2010.

# ريالي المثقوب

"العزيز جدًا محمد

ليس من الضروري أن تقرأ هذا الكتاب

لقد استعملته فقط لأقول لك إني أحبكَ

إذا كنت تحس بشيء مثل هذا تجاهي أرجو أن تعيد إليّ الكتاب مع إضافة عبارة:

وأنا كذلك!

وألاّ تضيف شيئًا آخر غير هذه العبارة!

كاترين".

وكتبت تحت اسمها على الفور كأني خارج وعيي:

"وأنا كذلك !"

ثم وقعت:

" محمد الشلح".

الغلاف: بسمة صلاح






